الباب الثالث:
في الاستدلال بخلقة الإنسان على وجود الصانع الحكيم سبحانه وتعالى

وفيه فصول:

الفصل الأول:
في الحكمة في خلق الإنسان

اعلم أن هذه المناظرة التي شرحها الله تعالى في قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:30] .. إلى آخر الآية. واعلم أنه تعالى لم يذكر في هذه الآية وجه الحكمة على التفصيل في تخليق الإنسان ولم يزد عليهم قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، **وللعلماء في هذا المقام طريقان:**

الأول: الطريقة الإجمالية التي ذكرها الله تعالى في هذه الآية وتقريرها إنه جل وعز قادر على جميع المقدورات منزه عن جميع الحاجات عالم كل المعلومات، وإذا كان الأمر كذلك كان لا محالة عالماً بأنه ما الذي ينبغي فعله وما الذي ينبغي تركه فكان عالماً لا محالة بكونه غنياً عن كل شيء ومن كان غنياً مما ينبغي وما لا ينبغي كان عالماً بكونها غنياً، وإذا كان الأمر كذلك امتنع إقدامه على ما لا ينبغي وإذا كان الأمر كذلك ثبت أن كل ما يفعله الله ﷻ حكمة وصواب وأنه منزه عن فعل العبث كما قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: 115]، ومنزه عن فعل اللعب كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَـٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان:38-39]، ومُنزّه عن فِعل الباطل كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[ص: 27]، بل كل ما فعله إنما فعله بالحق وللحق كما قال: ﴿مَا خَلَقْنَـٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان: 39]، وله المُلك والملك بالحق كما قال: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى

﴿ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: 62]، ومتى علمنا أنّ الأمر كذلك علمنا أنّ في تخليق البشر حكماً بالغة وقدرة نافذة وأسراراً عجيبة شريفة لا يعلم أكثرها إلا هو ولكنه تعالى لم يكشف تفاصيلها للبشر كما قال: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف: 51]، فوجب الإيمان بتلك الحكم على الإجمال وترك الخوض في تفاصيلها.

الطريق الثاني: بيان حكمة خلق الإنسان على التفصيل وفيه وجوه:

الأول: إن المخلوقات على أربعة أقسام:

أحدها: الذي له عقل ولا شهوة له وهم الملائكة، قال تعالى في حقهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ [التحريم: 6]، وقال أيضاً: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ۩ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل: 50].

الثاني: له شهوة ولا عقل له وهو كل حيوانات سوى الإنسان.

الثالث: الذي له شهوة وعقل وهو الإنسان، فإن رجح شهوته عقله التحق بالبهائم بل كان أضلّ كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف:179]، وإن رجح عقله شهوته التحق بالملائكة بل أفضل لأن الملائكة عليهم السلام معصومون والإنسان مبتلى بالشهوات ولا حول ولا قوة إلا بعصمة الله كما قال تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 70].

الرابع: الذي لا عقل له ولا شهوة وهي الجمادات.

ثم إنه ﷻ كان في العهد الأقدم والزمان الأسبق خلق الأقسام الثلاثة وبقي القسم الرابع وهو الذي يحصل فيه العقل والشهوة معاً فاقتضت قدرته التامة ومشيئته الكاملة خلق هذا القسم الرابع كي لا يبقى شيء من الأقسام الممكنة محروماً عن جود إيجاده ونعمة إبداعه فعند هذا قال للملائكة:

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فقالت الملائكة: إنك إذا جمعت بين الشهوة والغضب والعقل والحلم جاءت المنازعة فتولد الفساد من الشهوة ويولد سفك الدماء من الغضب فقال مدبر العالم المحيط علمه بجميع الكائنات والمجريات: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فيحتمل والله أعلم بمراده أن يحصل من تخليقهم وتكوينهم كمال حكمتي ورحمتي وقدرتي ويحصل منه أيضاً كمال حالهم ودرجتهم، أما كمال قدرتي فلأن لا

يبقى هذا القسم محروماً عن أثر الجود وأما كمال حكمتي فلأنه وإن كان الفساد والقتل يحصلان كثيراً أن الأكثر عدمهما وحصول العبودية والتذلل وترك الخير الكثير لأجل الشر القليل شر كبير وهو غير لائق بحكمتي. وأما كمال حالتهم ودرجاتهم فهو أن العمل بمقتضى العقل عند عدم الشهوة ليس في غاية الكمال إنما الكمال العمل بمقتضى العقل مع قيام منازع الشهوة كما في حق البشر، ويحتمل في ظنوننا أن المُراد بقوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ هو هذا المعنى والله أعلم بأسرار كلامه.

القسم الثاني للمخلوقات: اعلم أن مخلوقات الله تعالى بحسب التقسيم العقلي على ثلاثة أقسام فإنها إما أن تكون أرواحاً قدسية نورانية ربانية بلا جسد، وإما أن تكون أجساداً بلا أرواح وإما أن تكون مركبة من الأرواح والأجساد، أما القسم الأول فهم الملائكة عليهم السلام.

ولهذا السر سمّاهم الله في القرآن روحاً. قال في سورة البقرة في صفة عيسى ابن مريم: ﴿وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ﴾ [البقرة: 87]، و﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ﴾ [الشعراء: 193] وقال في سورة مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ: ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا﴾ [مريم: 17]، وقال في سورة النبإ: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ﴾ [النبإ: 38]، سمى آثارهم في أرواح البشر روحاً فقال: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ﴾ [النحل: 2]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ [الشورى: 52].

وأما القسم الثاني التي تكون أجساداً بلا روح فهي الحيوانات والنبات والمعادن، **فإن قيل**: للحيوان روح فلِمَ أدخلتها تحت قسم الأجساد؟ **قلنا**: مرادنا من الروح الأرواح اللطيفة التي تقوى على إدراك المعقولات والمجردات وليس لسائر الحيوانات هذا الروح، ولمّا دخل في الوجود هذان القسمان ففي القسم الثالث وهو الموجود الذي يحصل من الازدواج بين الأرواح العلوية والأجسام السفلية والازدواج بين النورانية الربانية اللطيفة والأجسام الظلمانية الشهوانية الكثيفة فحصل من ذلك الازدواج الإنسان فجسده من عالم الخلق وروحه من عالم الأمر فلا جرم قال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف: 54]، وحصل جسده بالتسوية وروحه بالنفخ فقال: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: 29]، وكان جسده من فطرة هذا العالم وروحه من فطرة العالم الأعلى فقال في فطرة جسده: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ﴾ [المؤمنون: 12]، إلى تمام المراتب الستة، ثم قال في فطرة روحه في المرتبة

السابعة: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون:14]، وذكر أن جسده من هذا العالم فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف: 110]، وإن روحه متوجه إلى ذلك العالم وهو قوله: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ وبيّن أن طاعة الجسد هو الاشتغال بالعبادات، وأن طاعة الروح هو التوكل على رب الأرضين والسمٰوات فقال في آخر سورة هود: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: 123]، واعلم أن دلائل كمال القدرة وجلال الحكمة في تخليق هذا النوع أتمّ وأكمل وبيانه من وجوه:

الحجة الأولى: أن الروح علوي والبدن سفلي، والعلو والسفل ضدّان والروح نوراني والبدن ظلماني والنور والظلمة ضدان، والروح لطيف والبدن كثيف واللطافة والكثافة ضدان والروح سمائي والبدن أرضي والسماء والأرض ضدان، والروح رحماني بدليل أنه لا يرغب إلا في معرفة الله ولا يفرح إلاّ بخدمة الله ولا يميل إلاّ إلى محبة الله ولا يبتهج إلاّ بمطالعة أنوار جلال الله ولا يطمئن إلاّ بذكر الله ولا يستقر إلاّ على عتبة قدس كبرياء الله، وأما البدن فإنه شيطاني شهواني لأنه لا يغتذى إلا بدردي العالم الجسماني ولا يفرح ولا يقوى إلاّ بالانغماس في الشهوانيات والظلمانيات، وإذا كان الأمر على هذه الجملة حصل بين الروح والجسد منافاة عظيمة ومباينة تامة فالجمع بينهما يدل على قدرة كاملة وحكمة عالية ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين.

الحجة الثانية: أن الشوق إلى الله تعالى مقام شريف وفيه لذة عجيبة وهذا المقام غير حاصل إلا للبشر واعلم أن هذا الكلام لا يتخلص إلا بتقديم حقيقة الشوق فنقول: إن الشوق لا يتصور إلا إلى شيء أدرك من وجه ولم يدرك من وجه آخر، أمّا الذي لم يدرك بوجه من الوجوه أصلاً فلا يُشتاق إليه فإن من لم ير شخصاً ولم يسمع وصفه لم يتصور أن يشتاق إليه وما أدرك بكماله وتمامه لا يشتاق إليه لأن الشوق طلب وطلب الحاضر محال، ثم إن الشوق إلى المحبوب يقع على وجهين:

الأول: أنه إذا رآه ثم غاب عنه بقي في خياله أثر تلك الصورة المحسوسة واشتاق الروح إلى أن ينقل ذلك الأثر من عالم الخيال إلى عالم الحس.

الوجه الثاني: أن يرى وجه محبوبه ولا يرى شعره ولا سائر محاسنه فيشتاق إلى أن ينكشف له ما لم يره قط.

وإذا عرفت هذا فنقول: هذان الوجهان غير متصورين في حق الملائكة أما

الوجه الأول فلأن ذلك أنما يمكن إذا أدرك ثم غاب ويمتنع في حق الملائكة أن يغيبوا عن شيء عرفوه فكل ما عرفوه فذلك العرفان حاصل لهم أبداً لا يتبدل ذلك العرفان بالغفلة ولا ذلك الحضور بالغيبة وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: 20].

وبقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: 164]، وبقوله ﷺ: «**إن من الملائكة صافّين لا يركعون وراكعين لا يسجدون وساجدين لا يرفعون**» وبالجملة فأحوالهم باقية ومعارفهم دائمة وهم مصونون عن تغيّر الأحوال وتبدلات المعارف، فإن حصل لهم شوق فذاك يكون من القسم الثاني، أما الإنسان فإن هذين القسمين يمكن وقوعهما له بالنسبة إلى معرفة الله تعالى بل هما لازمان لكل العارفين ضرورة، وأما القسم الأول فإن الذي تجلّى للعارفين من الأمور الإلٰهية وإن كان في غاية الوضوح والتجلي إلا أنه يكون مسبوقاً بشوائب التخيّلات فإن الخيالات لا يقصر في هذا العالم من المحاكيات والتمثيلات وهي مكدرات للمعارف وإنما تمام التجلي في الآخرة حيث تزول الخيالات وتبطل التمثيلات فهذا آخر نوعي الشوق وهو استكمال الوضوح فيما اتضح.

القسم الثاني: إن الأمور الإلٰهية لا نهاية لها وإنما ينكشف لكل عبد من العباد بعضها ويكون الحاضر متناهياً والغائب غير متناهٍ، ولو أن العارفين خلق في أول وقت حدوث العالم ثم سار بأسرع سير في درجات المعارف الإلٰهية بل طار حول عرش الجلال أشد طيراناً إلى آخر وقت يتخيله الخيال ويستحضره العقل من أواخر أوقات أهل الجنة وأهل النار كان الحاصل من طيرانه وسيره متناهياً، ويكون ما لم يصل هو إليه غير متناهٍ وإذا كان الأمر كذلك ظهر أن القسم الأول من الشوق يزول في الآخرة.

وأما القسم الثاني من الشوق إلى الله تعالى فإنه لا يزول ألبتة بل كلما كان السير أشد وأكثر كان الشوق أكمل وأعظم.

إذا عرفت هذه القاعدة فنقول: كل من بقي على حالة واحدة فإن كانت تلك الحالة موجبة للذة ثم تغيب فعند بقائها واستمرارها لا يبقى لذيذاً وكذا إن كان مؤلماً فعند استمراره لا يبقى مؤلماً بل اللذة والألم لا يحصلان إلا عند الانتقال من أحد الجانبين إلى الجانب الآخر، ولنضرب لها مثالاً من المحسوس فأحوال الخلق بالنسبة إلى الأغذية الطيبة والأطعمة اللذيذة ثلاثة:

الأول: حال الملوك المتنعمين المتوسعين في أكل الأشياء اللذيذة الطيبة ولا يلتذون بها وذلك لأنه لما واظبوا على أكلها اعتادوها فلا يلتذون بها.

القسم الثاني: الفقراء الذين لا يأكلون إلا الأطعمة الخشنة الخبيثة البشعة ولم يتفق لهم ألبتة تناول الأطعمة الطيبة.

القسم الثالث: الذين يأكلون في أكثر الأمر الأطعمة الخشنة البشعة وقد يتفق لهم في بعض الأحوال الأطعمة اللذيذة فهؤلاء إذا وجدوا طعاماً فيه أدنى طيب ولذة يستلذونها في الغاية.

وإذا عرفت هذا فنقول: الملائكة المقربون وإن كانت درجاتهم في العرفان عالية إلا أن تلك الدرجات باقية مستمرة فهم كالملوك المتنعمين، وإن كانوا مواظبين على الاقتداء بأنوار الجلال والاستنشاق من نسيم روح الله إلا أنه لم يتفق لهم فترة في هذه الحالة ولا انتقال عن هذه الدرجة وما وقعوا في ظلمة المعصية وانكسار ظلمات الذنوب.

وأما الحيوانات فحالهم يشبه حال الفقراء المواظبين على الفقر والضر والبؤس والمسكنة والجوع والعري ولم يتفق لهم انتقال من هذه الحال إلى حال طيبة فلا جرم لا يكون لهم ألم من الحالة التي هم فيها.

وأما الإنسان فتارة يقع في ظلمات عالم الأجسام وتارة يتخلص منها إلى أنوار عالم القدس وسبحات سرادقات الجلال فينتقلون تارة من الشدة إلى الرخاء، والأخرى من الرخاء إلى الشدة، فإذا انتقلوا من الشدة إلى الرخاء ومن الابتلاء إلى النعماء بأعظم التذاذهم فلا جرم يحصل هناك من اللذات والسعادات ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وإذا كانت أسباب هذه الغيبة بعد الحضور والحضور بعد الغيبة متعاقبة على الأرواح البشرية في دار الدنيا حصلت هناك آلام ولذات متعاقبة على الأرواح البشرية في دار الدنيا، واللذة إذا حصلت بحيث يكون قبلها فقدان وبعدها توقع الحرمان كان الالتذاذ بها أشد وأكمل، فهذا النوع من السعادة والبهجة الحاصلة للإنسان غير حاصلة للملائكة المقربين ولا لسائر الحيوانات فيمكن أن يكون المراد من قوله: ﴿إِنِّىٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ هذه الحالة، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾ [الأحزاب: 72]، فقوله: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ﴾ أي: تجلى أنوار عالم

القدس في روح الإنسان وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ إشارة إلى طوفان ظلمات النفس الجسمانية والموانع الشهوانية النفسانية.

الحجة الثالثة: أن بتخليق الملائكة ظهرت القدرة والحكمة وذلك لأن كمال قوتهم يدل على كمال قدرة خالقهم، وكمال عصمتهم يدل على كمال قدس خالقهم، أما بتخليق البشر ظهر كمال الجود وكمال الرحمة، أما كمال الجود فلأنه لا مناسبة بين التراب وبين جلال رب الأرباب، ثم إنه برحمته وكرمه جعله مركز المحبة ومعدن المعرفة كما قال: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ وأما كمال الرحمة فلأنه مع كثرة معاصيه أظهر فيه أنواعه من العجائب فأودع في قلبه نور عرفان جلاله وأجرى على لسانه ذكر توحيده وجعل عينيه محلاً لأبصار دلائله وأذنه محلاً لسماع كلامه، فالملائكة عليهم السلام [ظهرت بهم القدرة والحكمة][1] والبشر بهم ظهر الجود والرحمة.

الوجه الرابع: أن الملائكة عليهم السلام خلقوا من الأنوار أما آثار التركيب في البشر أكثر وذلك لأنه تعالى خلق الإنسان من جوهرين: الروح والبدن وأظهره من اثنين الأم والأب وركبه من شيئين من المني والدم، وجعل له مطيتين الليل والنهار، وغذاه بغذاءين الطعام والشراب، وأعد له دارين الجنة والنار كل ذلك ليتحقق صدق قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: 49].

الوجه الخامس: أن العبد يعلم ربه بالقدس والعظمة وصفات الجلال والإكرام مع أنه أبعد الأشياء مشابهة له ومشاكلة ثم إنه لا يعلم روحه ونفسه مع أنه هو هو كما قال: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 85]، ليعلم العبد أن كل ذلك بسبب مدد التوفيق والإرشاد لا بسبب الجد والاجتهاد.

القسم الثالث: للموجودات بحسب القسمة أربعة:

أحدها: موجود لا أول له ولا آخر وهو الحق ﷻ.

الثاني: موجود له أول وآخر وهو الدنيا.

الثالث: موجود له أول ولا آخر له وهو العبد في الآخرة.

---

(1) في الأصل: ظهرت القدرة بهم الحكمة.

وأما القسم الرابع: وهو الذي لا أول له وله آخر وهذا محال لما ثبت في علم الأصول أنّ ما ثبت قدمه استحال عليه [العدم][1]، إذا عرفت هذا فنقول: أيها العبد لك أول ولا آخر لك وكذلك الآخرة لها أول ولا آخر[2] لها فانظر أنك كفؤ للدنيا وكفو للآخرة، فإذا نظرت لا يخفى عليك أنك كفؤ الآخرة فلما كان الأمر كذلك فالحق ﷻ خلق الملائكة للبقاء أبد الآباد في الآخرة وخلقك أيضاً للبقاء كذلك أبد الآباد في الآخرة، إلا أن إظهار القدرة والرحمة في خلقك للبقاء أتم من إظهارها بسبب خلق الملائكة وذلك لأنها ذوات نورانية مُبرّاة عن الإسقام والإعلال والأمراض، فلعله يخطر ببال أحد أن بقاءها إنما كان لكونها صافية نورانية ثم إنه تعالى أزال هذه الخيالات بأن خلقك من أكثف الأشياء وأشد[ها][3] ظلمة وهو التراب وجعلك محلاً للإسقام والإعلال ومنزل الآفات والأمراض ثم جعلك في البقاء الأبدي كفؤاً للملائكة المقرّبين ليظهر للخلق أن البقاء لا يحصل إلا بإيجاده وإبداعه.

واعلم أنك قد عرفت أن الدنيا لها أول وآخر وأنها تنقضي ولا تبقى ألبتة، وكما أن من صفتها أنها لا تبقى ألبتة فكذلك من صفتها أن الإنسان كلما كان أشد قبضاً للدنيا وإمساكاً كان فوات الدنيا عنه أكبر، والدليل عليه أنه تعالى شبه الدنيا بالماء فقال جل وعلا: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [يونس: 24]، والماء إذا اغترفت منه بقي في يدك فأما إذا قبضت يدك على الماء لم يبق[4] شيء، فكلّما كان ذلك القبض أشد كان بقاء الماء[5] في الكفّ أقل وكذلك الدنيا مهما أخذتها بالحرص فربما حصلت، فأما إذا قبضت عليها بمخالب حرصك فأتت وخرجت عن يدك.

فإن قيل: أفترى[6] أن البخيل الذي يمسك المال يكثر ماله والسخي الذي ينفق المال يقل ماله؟

قلنا: هذا خطأ لأن الذي يظن أنه بقي عليه ماله ليس كذلك لأنه يموت فيؤخذ

---

(1) زيادة على الأصل: يقتضيها السياق.
(2) في الأصل: ولا آخرة.
(3) زيادة يقتضيها السياق.
(4) زيادة يقتضيها السياق.
(5) في الأصل: كان عدم بقاء الماء.
(6) في الأصل: افترى.

ذلك المال من غير حمد ولا أجر ولا يبقى عليه إلّا الخسار والذي ينفقه في سبيل الله يبقى كل ذلك في خزانة رحمة الله كما قال تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾[النحل: 96].

القسم الرابع للمخلوقات: اعلم أنها على ثلاثة أقسام:

إما كاملة لا يتطرق إليها النقصانات وهم أصحاب العالم العلوي أجسادهم السمٰوات وأرواحهم الملائكة.

وإما ناقصة لا يتطرق إليها الكمال وهي الحيوانات والنباتات والمعادن. وبقي في التقسيم قسم يليهما[1] وهم الذين يكونون تارة كاملين وتارة يصيرون ناقصين وإذا صاروا في حد الكمال كانوا فوق العرش جالسين مع الملائكة المقربين في حضرة رب العالمين معتكفين على عتبة عز الله مواظبين على ذكر جلال الله متفكرين في معارج آلاء الله متوكلين على رحمة الله مشتغلين بخدمة الله مستغرقين في محبّة الله محترقين في تنور عظمة الله. وتارة ينزلون إلى حد النقصان ومقام الشهوة والغضب، أما في مقام الشهوة فتارة يكونون كالخنزير [إذا][2] منع ثم أرسل على النجاسات وتارة كالذباب الذي كلما ذُبّ آبَ إلى قاذورات. وأما في الغضب فتارة يكونون كالكلب العقور وتارة كالجمل الصؤول وثالثاً كالنار المحرقة والسيول المغرقة والبحار المغرقة فهو مع كونه شخصاً واحداً يصدق عليه أنه ملك نوراني وشيطان ظلماني وخنزير حريص وحمار صبور وكلب نابح وثعلب رواغ وفاسق خبيث وملك كريم ولا شك أن تركيب شخص واحد يظهر منه هذه الآثار المتناقضة والأحوال المباينة أدلّ على كمال القدرة وأظهر في إظهار الحكمة فلهذا السبب ـ والله أعلم ـ قال ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

واعلم أن الإنسان الموصوف بهذه الصفات بعث إلى هذه الدنيا ليكون مسافراً، قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ: «الناس سفر والدنيا دار ممرّ لا دار مقر» وبطن أمه مبدأ سفره والآخرة مقصده وزمن حياته مقدار مسافته وسنوه منازله وشهوره فراسخه وأيامه أمياله وأنفاسه خطاه إلى أجله ويُسار به السفينة براكبها فقد

(1) في الأصل: يليه.
(2) [إذا منع] في الأصل: كالخنزير أمنع.

دعي إلى دار السلام كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: 127]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: 25]، ثم إن دار السلام أشرف البقاع وأعز المواضع قال تعالى: ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: 25]، وقال: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: 133]، لكن الطريق إلى دار السلام مظلم جداً فهو برحمته يهدي إليه وبفضله يرشد إليه وبإحسانه يدعو إليه وبكرمه يسهل المشي إليه وبجوده يعفو عن الذنوب ويتجاوز عن السيئات فلهذا المعنى قال: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فهذا تمام الكلام في حكمة خلق الإنسان، وبالله التوفيق.

obeikandl.com

الفصل الثاني:
في شرح فضيلة الإنسان

قال الله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 70].

اعلم أن هذه الآية مشتملة على أربعة أنواع من التشريفات:

النوع الأول: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ وفيه مباحث:

البحث الأول: اعلم أنه ﷻ بنى أمرك على الأول والوسط والنهاية على الكرم واعترف العدوّ بذلك ثم بيّن الحق كرامتك ثم شبهك في ذلك بالملائكة المقربين:

أما أنه بنى أول أمرك على الكرم فهو قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣﴾ فهذه الآية أول آية أنزلها الله تعالى على الرسول ﷺ وقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ إشارة إلى أول وجودك فثبت أن أول آية أنزلها الله تعالى على نبيه محمد ﷺ إنما أنزلها لبيان كرمه وجوده في أول أحوال خلقتك وإيجادك، وفيه دقيقة وهي أن أول أمرك غير مبني على كونك كريماً بل على كونك أكرم الموجودات لأنه قال: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾.

وتأكد هذا الكلام الذي ذكرناه بما يروى أن آدم ﷺ لما عطس قالت الملائكة له: قل: الحمد لله، فقال: الحمد لله تعالى. [فقال][1] تعالى: يرحمك الله، ولذلك خلقتك.

وأما أنه بنى وسط أمرك على الكرم فهو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾. وأما أنه بنى خاتمة أمرك على الكرم فهو قوله تعالى يوم القيامة عند عجزك وشدة

(1) زيادة يقتضيها السياق.

obeikandl.com

خوفك وعدم قدرتك على تمهيد الاعتذار. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ [الانفطار: 6]، قال بعض المفسرين: هذا تلقين للجواب والمقصود أن العبد يقول: يا رب غرني بك غاية كرمك وحلمك. فلما كان أول هذا الأمر وأوسطه وآخره مبنياً على الكرم ظهر أن العبد لا يضيع في بحار كرمه ولا يخيب مع كثرة نعمه، وأما أنه حيث اعترف العدو بذلك فلأن إبليس وهو أعدى الأعداء قد اعترف بذلك حيث قال: ﴿أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمۡتَ عَلَىَّ﴾ [الإسراء: 62].

أما أنه تعالى بيّن نهاية كرامتك فهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات: 13]، وأما أنه شبّهك بالملائكة في هذه الصفة فلأنه تعالى وصف الملائكة بالكرم فقال في صفة جبريل عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ [الحاقة: 40]، وقال في صفة يوسف عليه السلام: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ﴾ [يوسف: 31]، وقال في صفة الملائكة عليهم السلام الذين كانوا ضيف إبراهيم عليه السلام فقال تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ [الذاريات: 24] وقال تعالى في صفة جميع الملائكة: ﴿بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ﴾ [الأنبياء: 26].

ثمّ هاهنا حقيقة وهي أنه تعالى قال في بيان صفة الملائكة: (أنهم مكرمون) من غير التشديد وقال في حق البشر: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: 70]، ذكره مع التشديد والمقصود من هذا التشديد بيان تكثير الكرامات في حق التشديد، وقال أبو يزيد البسطامي رحمه الله: إن أنواع كرامات الله في حق البشر غير متناهية ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [إبراهيم: 34]، فهذا على سبيل الإجمال وأما على سبيل التفصيل فمن وجوه:

الأول: أنه يمطر كل ساعة على المتوكلين مطر الكفاية دليله قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ [الطلاق: 3]، وكل مؤمن فهو متوكل على الله بدليل قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ﴾ [التوبة: 129]، وقال عن الصحابة رضي الله عنهم أنهم قالوا: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ [آل عمران: 173]، قال تعالى: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ﴾ [آل عمران: 174]، ومنها أنه يمطر كل ساعة على المطيعين مطر المودة، قال تعالى: ﴿سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [مريم: 96].

ومنها: أنه يمطر على المجتهدين مطر الهداية، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: 69].

ومنها: أنه يمطر على الشاكرين مطر الزيادة قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: 7].

ومنها: أنه يمطر على المتذكرين مطر الهداية والبصيرة قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 201]، والاستقصاء في هذا الباب خارج عن وسع البر وكل داخل تحت قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾.

البحث الثاني: في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا﴾.

اعلم أن عطية الله تعالى لها أسماء كثيرة في القرآن:

أحدها: الفضل، قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: 58]، أي: ينبغي أن يكون فرحكم بفضل الله. عليكم بالإيمان لا بأعمالكم وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة فإنهم يقولون: العبد وإن أطاع ربه بأعظم الطاعات من أول خلق العالم إلى قيام الساعة فإنه لا يدخل الجنة إلا بفضل الله ورحمته، ولا يكون للعبد على ربه دين ولا حق ومما يدل على صحة هذا المعنى وجوه:

الأول: أن هذا العبد وإن أطاع فربما وجد من صحبه عبداً كان أذكى منه وأكثر صدقاً وعلماً منه، ومع أنه وقع في الكفر فإذا كان كذلك فكل أحد من هذين العبدين، أعني المطيع والعاصي والمؤمن والكافر والمقر والمنكر، يصح أن يصدر من كل واحد منهما كل واحد من هذين العملين فهذا المطيع اختار الطاعة مع أنه يجوز منه أن يختار المعصية بدلاً عن الطاعة فإما أن يقال: حصل هذا الرجحان من غير المرجح وهو [إمّا][1] أن يفضي إلى نفي الصانع أو يوقف على مرجح وذلك المرجح إن كان من العبد عاد الطلب الأول ويفضي إلى التسلسل وإن كان من الله فحينئذ يكون صدور تلك الطاعة من الله تعالى في حقه نعمة وإذا كان صدور الطاعة من العبد عين نعمة الله على العبد فكيف يستحق العبد بنعمة الله عليه في الدنيا نعمة أخرى منه في العقبى فهذا برهان أوضح من ضوء الشمس على أن (كل ما)[2] يحصل فإنه إنما يحصل بفضل الله وبرحمته فلهذا قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾.

---

(1) زيادة يقتضيها السياق.

(2) (كل ما) في الأصل: (كلاً).

Obeikandl.com

الحجة الثانية: وهو أن العبد إلى أن يصير بحيث يقدر على أن يأتي بالطاعة ويحترز عن المعصية فقد سبق من الله عليه نعمة كما قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: 28]، فهو الذي خلقه بعد أن كان معدوماً محضاً كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: 9]، ثم خلقه من التراب كما قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ ثم ردده في أطوار الخلقة وأكوان الفطرة ثم نفخ فيه الروح وخلق فيه الحياة كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ ثم أعطاه القدرة كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ [الروم: 54]، ثم أعطاه العقل والعلم كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل: 78]، ثم أعطاه الصورة الحسنة كما قال تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: 64]، ثم أعطاه الأغذية والأرزاق كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ [الروم: 40]، ثم إنه تعالى بعد هذه النعمة العظيمة الدنيوية أنعم عليه بالنعمة العظيمة الدينية وهو بعث الرسل صلوات الله عليهم وإنزال الكتب وإزالة الختم والرق والرين والقساوة من قلبه وأعطاه التوفيق والهداية والعصمة، ثم إن هذا العبد بعد هذه النعم العظيمة أتى بطاعات قليلة مزجاة غير صافية كما يليق بقدرته القاصرة وعقله الناقص المختصر بحكم العقل بوقوع هذه الطاعات اليسيرة المخلّطة قضاءً لحق تلك النعمة العظيمة المتقدمة، وإذا وقعت هذه الطاعات قضاء لتلك النعم السابقة امتنع صيرورتها موجبة لنعمة أخرى وإذا كان الأمر كذلك علمنا أن دخول الجنة يكون بمحض فضله ورحمته.

الحجة الثالثة: أنه يمكن أن يصير فعل العبد علة لاستحقاق الثواب على الله تعالى، إلا أن فرح العبد بما يعطيه الله بفضله وإحسانه يجب أن يكون أعظم من فرحه بما يجده من كسبه واجتهاده. ومثاله أن وجد بكسبه ديناراً ووجد من تشريف الملك العظيم خلقة نفيسة على سبيل الإعزاز فإن فرح كل عاقل بما حصل من تشريف الملك يكون أتم وأكمل من ذلك القليل الذي حصله بكسبه، فإذا كان الأمر كذلك في السلطان المجازي والملك المختصر فما ظنّك بتشريف سلطان السلاطين على سبيل الحقيقة في إعطاء الملك الأبدي فلهذا قال: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾.

الحجة الرابعة: أنه تعالى جعل اشتغال العبد بالطاعة مبدأ الخيرات وجعل إعانة الله له على تلك الطاعات غاية السعادات، ألا ترى أنه قال أولاً: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ثم قال: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وقال أولاً: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:

69]، وفي هذه الدلائل كثرة ومقصودنا هاهنا إقامة هذه الدلائل القاطعة على صحة قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾.

الاسم الثاني: من أسماء عطية الله تعالى: المنة، قال الله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: 17]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: 164]، ومن الأسماء الواردة في الحديث: "الحنّان المنّان".

فإن قيل: أليس أنه تعالى نهى رسوله عن المنة فقال: ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر: 6]، ونهى الله تعالى المتصدق عن المنة، فقال تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: 264]، وبيّن أن المنة توجب الرياء فقال: ﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ [البقرة: 264]، وإذا بيّن أن هذه الخصلة مذمومة فكيف ارتضاها لنفسه؟

الجواب: أنه تعالى إذا أنعم على العبد ثم منّ عليه بتلك النعمة صار العبد مشغولاً بالمنة وصار غافلاً عن النعمة، والمنة صفة الحق والنعمة من جنس الخلق والاشتغال بصفة الحق أولى من الاشتغال بالخلق.

الاسم الثالث: من أسماء عطية الله تعالى: [الإحسان] قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن:60] وقال يوسف عليه السلام: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ [يوسف: 100]، وقال موسى عليه السلام لقارون: ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: 77].

الاسم الرابع: اللطيف. قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ [الشورى: 19]، ومن لطفه أنه نوّر قلبك بالهدى وجنبك عن الردى والهوى، وجعلك من أمة المصطفى ﷺ ووعد أن يصونك عن العذاب تحت الثرى، ويحشرك في زمرة أرباب التقى، ويقيك من عذاب السعير واللظى، ويدخلك جنة المأوى ويعطيك الزيادة المذكورة في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: 26].

الاسم الخامس: الهبة. قال الله تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ [الشورى: 49].

الاسم السادس: الفتح. قال الله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر: 2]، وقال: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: 89].

الاسم السابع: الإكرام والتكريم كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: 70]، والتكريم هو جعل الشيء كريماً ولا شك [أن] صيرورة الشيء كريماً إنما يكون بحصول صفات الكمال فيه وحصول تلك الصفات لا يكون إلا بإيجاد الحق وتكوينه فظهر أن التكريم لا يحصل إلا بإكرامه والحسنى لا يحصل إلا من جوده وإحسانه.

البحث الثاني: في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾.

اعلم قد اختلف المفسرون في المراد بهذا التكريم وذكروا فيه أقوالاً كثيرة وطريق ضبط القول فيها أن نقول: هذا التكريم إما أن يكون المراد منه أحوالاً موجودة في جسد الإنسان أو أحوالاً موجودة في روحه أو مجموعهما، أما الأحوال الجسدانية فيمكن حمل هذا التكريم على أمور:

النوع الأول: أن يكون المراد [من] ولقد كرمنا بني آدم الصور الحسنة والذي يدل على أن الصورة الحسنة من جملة نعم الله تعالى على العبد [وهي من] وجوه:

الحجة الأولى: قوله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾. [غافر: 64]

الحجة الثانية: قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: 138].

اعلم أن الصبغة ما يُصبغ [بها] الثياب يقال: صبغ الثوب يصبغه بفتح الباء وضمها وكسرها ثلاث لغات، صَبغاً وصِبغاً بفتح الصاد وكسرها لغتان، والصبغة فعلة من الصبغ كالجلسة من جلس وهي الحالة التي يقع عليها الصبغ وذكروا في المراد بصبغة الله وجوهاً:

الأول: المراد به تركيبه وصورته وخلقته وفطرته وعلى هذا القول فالآية تدل على كمال حسن صورة الإنسان من وجهين:

أحدهما: أنه تعالى لما أضاف هذه الصبغة إلى نفسه دل ذلك على كمالها كما في قوله تعالى: «بيت الله» و«ناقة الله».

والثاني: أنه قال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة:138] وهذا يدل على كمال هذه الصبغة.

الثالث: أن المراد منه دين الله ثم ذكروا في أنه: لِم سمي دين الله بصبغة الله وجوهاً:

أحدها: أن بعض النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمونهم العمودية ويقولون: هو تطهير لهم فإذا فعل الواحد منهم بولده ذلك قالوا: الآن صار نصرانياً، فقال الله تعالى: اطلبوا صبغة الله وهي الدين والإسلام لا صبغتهم وقيل: السبب في إطلاق الصبغة على الدين طريقة المشاكلة، نظيره قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: 194]، ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: 40]، ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۝١٤ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة:14-15]، ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: 142]، ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: 54]، ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: 38].

الثاني: أن اليهود يصبغ أبناءها يهودًا والنصارى يصبغ أولادها نصارى يعني يلقنونهم فيصبغونهم بذلك ثم يشربون قلوب أولادهم هذه الأديان، قال ابن الأنباري: يقال: فلان يصبغ فلاناً في الشر أي: يدخله فيه ويلزمه إياه كما يجعل الصبغ لازماً للثوب، وأنشد ثعلب:

دع الشر وأنزل بالنجاة تحرزا إذا أنت لم يصبغك في الشر صابغ

الثالث: أنه سمي الدين صبغة لأن هيئته تظهر بالمشاهدة من أثر الطهارة والصلاة وغيرهما، قال تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح: 29]، والركوع، قال القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني: صبغة الله معلق بقوله: «آمنا بالله - إلى قوله: ونحن له مسلمون» فوصف هذا الإيمان الصادر منهم بأنه صبغة الله لتتبين أن المباينة بين هذا الدين [الذي] اختاره وبين الدين الذي اختاره المبطل ظاهرة جلية كما تظهر المباينة بين الألوان والأصباغ لدى الحس السليم.

الحجة الثالثة: قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ [التين: 4]، اعلم أن التقويم تصيير الشيء على ما ينبغي أن يكون في التأليف والتعديل يقال: قوّمه تقويمًا فاستقام وتقوّم، ثم ذكروا وجوهاً في هذا التقويم:

منها: ما نقل عن يحيى بن أكثم وجماعة أنه حسن الصورة، يحكى: أن ملكاً من ملوك زمانه خلى بامرأته في ليلة مقمرة فقال لها: إن لم تكوني أحسن من القمر

فأنت طالق، فأفتى الكل بالحنث إلا يحيى بن أكثم فإنه قال: لا يقع الطلاق فقيل له: خالفت شيوخك، فقال: الفتوى بالعلم وقد أفتى من هو أعلم منّا وهو الله ﷻ حيث قال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:4] وكان بعض الصالحين يقول: إلٰهنا أعطيتنا في الأول أحسن الأشكال فأعطنا في الآخرة أحسن الأفعال وهو العفو عن الذنوب والتجاوز عن العيوب.

الحجة الرابعة: أن كل شخص فله حكمان أحدهما من جهة جسمه وهو منظره والآخر من قبل نفسه وهو مخبره، وكثيراً ما يتلازمان ولذلك فرّع أصحاب الفراسة من معرفة أحوال النفس أدلّة إلى الهيئة البدنية حتى قال بعض الحكماء: قلّما توجد صورة حسنة تدبرها نفس رديئة فنقش الخواتيم مفرد من الكنز وطالعة الوجه عنوان باقي النفس قال ﷺ: **«اطلبوا الخير من حسان الوجوه»**، وقال عمر ﷺ: (إذا بعثتم رسولاً فاطلبوا حسن الوجه حسن الاسم). وحكي أن المأمون استعرض جيشاً فمرّ به رجل قبيح الوجه فاستنطقه فوجده ألكن فأمر إسقاطه وقال: إن الروح إذا وقع أثرها في الظاهر كانت صباحة، وإذا وقع أثرها في الباطن كانت فصاحة وهذا الرجل لا ظاهر له ولا باطن.

الحجة الخامسة: في أن كمال الجسم من الفضائل قوله تعالى: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة: 247]، واعلم أن حسن الصورة وإن كان مرغوباً فيه إلا أن حسن السيرة أفضل منه، **ويدل عليه وجوه**:

الحجة الأولى: إن حسن الصورة من مطالب الشهوة، وحسن السيرة من مطالب الحكمة ولا شك أن الحكمة أفضل من الشهوة، وكان حسن السيرة أفضل حالة من حسن الصورة.

الحجة الثانية: أن يوسف صلوات الله وسلامه عليه اجتمع له حسن الصورة وحسن السيرة ثم إنه بسبب حسن الصورة وقع في أنواع من البلاء:

منها: أن أباه كان يحبه أكثر كما أخبر الله تعالى عن إخوته قولهم: ﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ [يوسف: 8]، فلهذا قصدوا قتله كما أخبر الله تعالى حكاية عنهم قولهم: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف: 9].

وثانيها: أنه وقع بسبب الحسن في أسر الرق قال تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ [يوسف: 20].

وثالثها: أنه وقع بسبب الحسن في زحمة مراودة المرأة قال تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ﴾ [يوسف: 23].

ورابعها: أنه وقع في الهم كما أخبر الله تعالى عنه بقوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّءَا بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: 24].

وخامسها: أنه وقع في الخوف من زوج تلك المرأة وقال تعالى: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [يوسف: 25].

وسادسها: أنهم جعلوه في السجن بسبب هذه الواقعة وبقي هناك مدة طويلة قال تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: 42]، فهذه هي الآفات الحاصلة بسبب حسن الصورة. **أما الخيرات الحاصلة بسبب حسن السيرة فوجوه:**

أحدها: أنه لما كان عالماً بعلم التعبير خاطبوه خطاب التعظيم واستفتوا منه تعبير تلك الرؤيا، قال تعالى حكاية عنهم: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾ [يوسف: 46].

وثانيها: أن الملك لما وجد عنده هذا العلم طلبه وأخرجه من السجن قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ﴾ [يوسف: 50].

وثالثها: أنه زالت التهمة عنه في ذلك الوقت ببركة العلم قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: 54].

ورابعها: أن الملك اصطفاه لنفسه عند ذلك قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾.

وخامسها: أن يوسف عليه السلام توسل إلى ذلك الملك بحسن السيرة لا بحسن الصورة فقال تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 55].

openkandi.com

فثبت بما قلنا أنه وقع في ستة أنواع من البلاء بسبب حسن الصورة ووصل إلى ستة أنواع من الخيرات بسبب حسن السيرة، وذلك يدل على أن حسن السيرة أفضل من حسن الصورة.

الحجة الثالثة: أن النسوة لما رأين يوسف ﷺ قلن: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ﴾ [يوسف:31]، حاش لله شبّهن يوسف بالملك وذلك التشبيه كان في حسن السيرة لا في حسن الصورة لأنه ﷺ دخل مطرقاً رأسه ولم ينظر إلى واحدة منهن مع أنه كان في أول زمن الشباب، حتى أن النسوة مع غاية شهوتهن لم يذكرن منه الصورة بل ذكرن منه السيرة فدلّ على أن حسن السيرة أفضل من حسن الصورة.

الحجة الثالثة: أن حسن الصورة لا يبقى إلا أياماً قلائل أما حسن السيرة فإنه لا يزول أثره ولا تبطل نتيجته فدل هذا على أن حسن السيرة أفضل من حسن الصورة، فهذا جملة الكلام في شرح قول من قال: المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ حسن الصورة وحسن السيرة.

الوجه الثاني: أن المراد من هذا التكريم امتداد القامة وذلك لأن الشيء كلما كان أكثر ارتفاعاً وامتداداً كان أعلى في جنسه، فالشجر كلما كان أكثر ارتفاعاً وامتداداً كان أشرف فلهذا السبب سمى كل من جاوز آحاد جنسه بصفات الشرف فإنه العالي والفائق.

الوجه الثالث: المراد بهذا التكريم: أكرم الإنسان حيث مكنه من القيام والقعود والاستلقاء والانضجاع. واعلم أنه تعالى خلق الخلق على أربعة أصناف في التركيب:

- **منها ما يشبه القائمين**: وهي الأشجار والنبات، ومنها ما يشبه الراكعين وهي البهائم.

- **ومنها ما يشبه الساجدين**: وهي الحشرات التي تدب على بطونها ووجوهها.

- **ومنها ما يشبه القاعدين**: وهي الجبال والتلال.

ثم إنه تعالى أقدر الإنسان على جميع هذه الهيئات ومكنه من أن يذكر الله ﷻ

على جميع هذه الأحوال كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: 191]، فمن أتى بركعة واحدة فقد حصلت في تلك الركعة الواحدة الهيئات الأربع وهي: القيام والركوع والسجود والقعود، فحينئذ يحصل له ثواب هذه الأصناف الأربعة فإقدار الله تعالى الإنسان على جميع هذه الهيئات هو المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: 70].

الوجه الرابع: في هذا التكريم هو أنه تعالى خلق آدم من جوهر التراب وللتراب أنواع من الفضائل:

أحدها: الوصلة، وذلك لأنه تعالى خلق إبليس من النار كما قال تعالى حاكياً عنه: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: 12]، والنار سبب القطيعة والتراب سبب الوصلة.

والثاني: أن التراب فيه أمانة، قال تعالى: ﴿فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: 261]، وفيه لطيفة، وهي أنه خلقك من شيء فيه أمانة فاجتهد حتى لا تبدل الأمانة بالخيانة ولأجل كون التراب أميناً قَبِلَ آدم الأمانة وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ. . .﴾، إلى قوله: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ [الأحزاب: 72].

والثالث: أن التراب طاهر وطهور، قال تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء: 42]، ثم قال: ﴿وَٱلطَّيِّبَـٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَـٰتِ﴾ [النور: 26]، فلأجل هذا السر اصطفى الله تعالى آدم فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ﴾ [آل عمران: 33]، ثم اصطفى أبناءه فقال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: 32]، ثم كرمهم فقال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾.

والرابع: التواضع والدليل عليه أن آدم عليه السلام لما أتى بالزلة قال في الحال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: 23]، ولما أتى إبليس بالمعصية قال له ربه: لِم فعلت؟ قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: 12]، فتكبر على الله وردّ أمره.

والخامس: الطهارة قال عليه السلام: **«التراب طهور والمؤمن والماء أيضاً طهور»**(*)

(*) 1 ـ رواه أحمد (5/ 180) وأبو داود (332) والترمذي (124) والنسائي (1/ 17) وابن حبان (301) والحاكم (1/ 176 ـ 177) من حديث أبي ذر وهو حديث صحيح. ولفظه «وإن الصعيد الطيب طهور [وضوء] المسلم. . .» الحديث.

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: 48]، ثم عجن التراب بالماء طاهراً بطاهر وطهوراً بطهور.

واعلم أن النار لا تنطفىء إلا بأحد السببين: التراب والماء فجعل هذا الطين سبباً لانطفاء نار الوسوسة في الدنيا وانطفاء نار جهنم في الآخرة، والله أعلم.

الوجه الخامس: في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ قال ابن عباس: كرمناهم بالأكل بالأصابع بخلاف البهائم فإنها تأكل بالفم، واعلم أن وجه التكريم في هذا المعنى من وجوه:

الأول: أن الرأس محل للعقل والفكر والذهن والأكل غذاء الشهوة والبطن ولا يليق بالحكمة أن يسجد الرأس الذي هو معدن العقل والفكر لأجل الغذاء الذي هو نصيب النفس بل جُعِلَت اليد خادمة حتى أن اليد ترفع اللقمة إلى الفم حتى يخدم العبد سيده، وفيه لطيفة وهي: أنه تعالى أغناك عن أن يخضع رأسك ويسجد لطلب الطعام فلا تختر بجهلك سجدة لمخلوق لطلب الطعام.

الوجه الثاني في شرح هذه النعمة: أن البهيمة تأخذ علفها بفمها ملطخة ملوثة أما الإنسان فإنه ينظف طعامه بأصابعه ويميز جيده عن رديئه، وهاهنا دقيقة وهي أنه ﷻ علق رعاية مصالح البهائم بطبائعها حتى أنها لطبعها تميز بين مصالحها ومفاسدها، فيحترز وقت تناولها العلف عمّا يؤذيها ويجذب ما ينفعها وهكذا تكون كل الطيور والبهائم والحشرات من أول الأمر، أما الإنسان فإنه علق رشده بعقله لا بطبعه حتى أن الإنسان قبل ظهور نور العقل فيه لا يميز بين النافع والضار، أما إذا حملنا هذا التكريم على الأرواح الروحانية ففيه وجوه:

الأول: ولقد كرمنا بني آدم بالعقل والفهم.

واعلم أنه ﷻ أقر العقل في كتابه من وجوه:

الأول: بكثرة أسمائه وسيجيء بعد ونذكر هاهنا بعضها:

فالاسم الأول: العقل قال موسى عليه السلام في مناظرته مع فرعون: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ...﴾، إلى قوله ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: 28]، وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: إذا رأيت عاقلاً فكن له خادماً، وقال عليه أفضل السلام: «**أول ما خلق الله العقل فقال له: أقبل فأقبل ثم قال: أدبر فأدبر فقال تعالى: وعزتي وجلالي ما خلقت**

خلقاً أكرم عليّ منك، بك آخذ وبك أعطي وبك أعاقب»(*)، وقال ﷺ: **«لادين لمن لا عقل له»**(**). وقال: **«لا يعجبنكم إسلام امرىء حتى تعرفوا كنه عقله»**(***)، وقالت الحكماء في تفسير هذا الخبر: من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه كان حتفه في أغلب خصال الخير عليه. وأيضاً بالعقل قدر الإنسان على القيام بأمر الله في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: 9]، وقدر على تحصيل حرث الآخرة في قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ قالوا: ثمرة حرث الآخرة على التفصيل سبعة أشياء: بقاء بلا نفاذ وقدرة بلا عجز وعلم بلا جهل وغنى بلا حاجة وأمن بلا خوف وراحة بلا شغل وعز بلا ذل.

وأيضاً أكثر المفسرين على أن معنى قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: 35]، الله هادي أهل السمٰوات والأرض، ومعلوم أن كمال تلك الهداية إنما يحصل بالعقل، وأيضاً العقل نوعان:

غريزيّ وهو القوة المتهيئة للعلوم الكلية القدسية، فوجود هذه القوة في الطفل كوجود النخل في النواة والسنبلة في الحب.

ومستفاد وهو كمال حال هذه القوة ثم هذا المستفاد ضربان: ضرب يحصل للإنسان حالاً فحالاً بلا اختيار منه ولا يعرف كيف حصل ومن أين حصل.

وضرب يحصل باختياره فيعرف كيف حصل ومن أين حصل، ولما انقسم العقل إلى غريزي ومستفاد قال أمير المؤمنين رضوان الله عليه: العقل عقلان مطبوع

(*) قال ابن القيم في المنار المنيف (ص: 66) تبعاً لشيخه شيخ الإسلام ابن تيمية: أحاديث العقل كلها كذب، ثم ذكر هذا الحديث.

والحديث موضوع بدون شك، انظر الموضوعات (27) للصمغاني، والمقاصد الحسنة (ص: 118) للسخاوي والأسرار المرفوعة (107) لملا علي القاري والفوائد المجموعة (ص: 478 - 477) للشوكاني.

(**) رواه النسائي في الكنى وعنه الدولابي في الكنى (2/ 104) وقال النسائي: باطل منكر. وفي إسناده بشر بن غالب وهو مجهول، وهو آفته كما قال الأزدي وأقره الذهبي في الميزان. ورواه الحارث في مسنده (1/ 327) من حديث جابر.

قال الحافظ: في المطالب العالية (3/ 13) أودع الحارث بن أبي أسامة لداود بن المحبر في مسنده من كتاب العقل له، وهي موضوعة كلها، لا يثبت منها شيء. وانظر سلسلة الضعيفة (1/ 13) وتنزيه الشريعة (1/ 213).

(***) رواه ابن عدي في الكامل (1/ 322-323) والعقيلي في الضعفاء (1/ 103) من حديث ابن عمر، وفيه إسحاق ابن أبي فروة وهو متروك.

obeikandi.com

ومسموع ولا ينفع مسموع إذا لم يكن مطبوع كما لا ينفع الشمس وضوء العين ممنوع، وإلى القسم الأول أشار النبي ﷺ بقوله: «**ما خلق الله تعالى خلقاً أكرم عليه من العقل**»(*) وإلى الثاني أشار بقوله ﷺ لعلي ﷺ: «**إذا تقرب الناس إلى خالقهم بأثواب البر فتقرب أنت بعقلك تسبقهم بالدرجات والزلفى عند الناس في الدنيا وعند الله في الآخرة**»(**).

واعلم أن لفظ العقل في اللغة اسم لما يقيد به البعير به لئلا يندّ، ويسمى هذا المعنى به تشبيهاً على عادتهم في تسمية المعقولات باسم المحسوسات تنبيهاً على أنه هو الذي يمنع الإنسان ويكون قيداً له عن الإقدام على ما لا ينبغي من الأفعال.

الاسم الثاني: اللب، قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: 179]، وقال: ﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: 197]، وقال في سورة الطلاق: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الطلاق: 10]، وقال في سورة آل عمران: ﴿لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: 190]، واعلم أن اللب من كل شيء هو المقصود الخالص منه وهذا الاسم يدل على أن المقصود من الإنسان إنما هو العقل وكيف لا يكون كذلك وأشرف الأمور الصادرة عن الإنسان أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به، ثم من الظاهر أن معرفة الحق أشرف من عمل الخير ومعرفة الحق لا يمكن إلا بالعقل فدل على أن لب الإنسان هو العقل.

الاسم الثالث: النهي، ويحتمل أن يكون جمع نهية وأن يكون اسماً مفرداً وجعل اسماً للعقل والذي ينتهي عن الاشتغال بالمحسوسات وتوجه إلى عالم المعقولات، فلهذا المعنى أجبل أربابه على تدبر معاني أرباب المحسوسات إلى معرفة ما فيه من المعقولات كقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا...﴾ [طه: 128]، وقال: ﴿لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: 128].

الاسم الرابع: الحِجْر، وأصله من الحجر أي: المنع وهو أن يحجر الإنسان

(*) قال العراقي في تخريج حديث الإحياء (1/ 119) أخرجه الترمذي الحكيم في النوادر بسند ضعيف. وفي إسناده جعفر بن الزبير وهو متروك الحديث.

(**) ذكره الغزالي في الإحياء (1/ 119) بهذا اللفظ، وقال الحافظ العراقي في تخريج أحاديثه: أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث علي «**إذا اكتسب الناس من أنواع البر..**» الحديث وإسناده ضعيف.

نفسه عن فعل ما لا ينبغي قال تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝﴾ [الفجر: 5].

الاسم الخامس: الحجي من حجاه الشيء إذا قطعه ومنه الأحجية، فكأنه سمى العقل بهذا الاسم لكونه قاطعاً بين الإنسان وبين الأفعال القبيحة.

الاسم السادس: أن العلم ثمرة العقل، ثم إنه تعالى سمى العلم نورًا والجهل ظلمة فقال: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: 257]، وسماه أيضاً روحاً في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: 52]، وسماه أيضاً حياة والجهل موتاً فقال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ﴾ [الأنعام: 122]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ [فاطر: 22]، وأيضاً سماه ماء في قوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: 17]، وإذا كان العلم نتيجة للعقل وحال النتيجة في العلو والشرف كذلك فاعرف أن الأصل كيف يكون؟

النوع الثاني: في بيان فضائل العقل.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: 37]، أي: لمن كان له عقل، فجعل من لا عقل له كأنه لا قلب له ونظيره قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: 88 - 89]، وقال: ﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: 33]، والمراد بالقلب في كل هذه الآيات العقل، وأيضاً فقد أثبت الله تعالى للعقل أبصاراً ورؤية أما الأبصار ففي قوله: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 198]، وأما الرؤية ففي قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ [النجم: 11]، وقال في إبراهيم عليه السلام: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: 75]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ [الفرقان: 45]، وسمى عدم إدراك العقل عمى في آيات:

- منها قوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة: 18].

- ومنها قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: 46].

- **ومنها**: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا﴾ [الكهف: 101]، فلولا أن المراد من العين هاهنا البصيرة لا البصر [لما][1] قال: عن ذكري لأن الذكر لا يدرك بحاسة البصر، وكيف لا يكون فقد البصيرة أعظم ضرراً من فقد البصر وقد عرفت أن البدن بمنزلة الفرس والنفس بمنزلة الراكب وضرر عمى الراكب نفسه أشد عليه من عمى فرسه وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنفال: 22]، وقال أيضاً: ﴿لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: 10].

فإن قيل: إن كان للعقل هذه الفضائل الكثيرة فلم قال: **«أكثر أهل الجنة البُلْه»**[*]؟ فالجواب من وجوه:

الأول: المراد بالبله الجاهلون بأمر الدنيا والعالمون بأمور الآخرة كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾.

الثاني: أن من عبد الله للجنة فهو أبله في جنب من يعبده لكونه إلٰهاً رباً ملكاً.

الثالث: قال الحسن: أكثر أهل الجنة البله أي: هم حشو الجنة كالعامي في البلد.

الرابع: أكثر أهل الجنة البله أي: هم العصاة الذين عفى الله عنهم وأما العقلاء المطيعون فهم أهل الدرجات العلىٰ.

الوجه الثاني: في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ أنه ﷻ خلق كل ما سواه لأجلك فقال في الأرضيات: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ [البقرة: 29]، وقال في السمٰوات: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ [الجاثية: 13]، ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ﴾ [البقرة:22]، فالأرض فراشاً لنا والسماء سقفاً لنا فقال: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ﴾ [الأنبياء: 32]، وجعل كل ما في الأرض رزقاً

---

(1) [لما]في الاصل [كما].

(*)رواه البزار وابن عدي في الكامل (3/ 1160) من حديث أنس وفي إسناده سلامة بن روح وهو ضعيف لسوء حفظه، وانظر تخريج أحاديث شرح العقيدة الطحاوية (ص: 5754573) للشيخ محمد ناصر الدين الألباني. وكذلك رواه الطحاوي في مشكل الآثار (4/ 121) وغيره.

لنا فقال: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: 22]، و-جعل الشمس ضياء لنا ومؤذناً لصلاتنا فقال تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم:17-18]، وجعل القمر معرفاً لأوقات صيامنا وحجّنا ومواقيت لقضاء ديوننا فقال: ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: 189]، وزيّن السماء بالكواكب لأجلنا فقال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات: 6]، وجعل الكواكب علامات نهتدي بها في أسفارنا فقال تعالى: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ وجعل الشمس متحركة حتى نحن بحركتها نجد القبلة في النهار، وجعل القطب ساكناً حتى نحن بسكونه نجد القبلة في الليل، وخلق الأنعام لغذائك وثيابك فقال تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾﴾ [النحل: 5]، وسخر لنا الخيل والبغال والحمير فقال: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: 8]، ثم قال: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أعددت لكم من المنافع بفضلي ما لا تعلمون، ثم ذكر الرسول ﷺ عن الله تعالى مثله في الجنة فقال تعالى: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأيت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**»(*)، ثم خلق النبات لأجلنا فقال تعالى: ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ ثم قال لنا: أعطيناكم هذه الأشياء قبل السؤال بالفضل منا، قبل الطاعة كرماً منا فقال تعالى: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: 34]، ثم جمع جميع النعم فقال: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: 18]، وهذه الخاتمة أعظم مما تقدم من النعم وهي أعظمها وأجلها وذلك لأن الإنسان لما لم يشتغل بالشكر لم يشتغل بتعديد نعم الله عليه مهّد برحمته عذره في ترك ذلك الشكر فقال: إنها كثيرة وعقلك لا يقدر على استحضارها على التفصيل وكان هذا الترك للعجز فكنت معذوراً فيه وهو المراد من قوله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يعني غفور يستر عيبك في الدنيا ورحيم يتجاوز عن تقصيرك في الآخرة، وقال في سورة إبراهيم: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: 34]، وهذا إشارة إلى أن القدر الذي تقدر عليه من الشكر فإنه لا تفعله وتتغافل عنه.

(*) رواه البخاري: (3244 و4779 و4780 و7498) ومسلم (2824) والترمذي (3195) وابن ماجه (4328) من حديث أبي هريرة وهو حديث قدسي.

الوجه الثالث: في تفسير قوله: ﴿كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء:70]، أنه اتخذ قلبه لمعرفته ومحبته ولسانه لشهادته، وبدنه لخدمته ثم في القيامة يعطيه كل ما يتمنى ويزيد إلى أن يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ [الزمر: 74].

الوجه الرابع: جعل أبانا آدم رسولاً إلى الملائكة حيث قال تعالى: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ ثم جعلهم سجوداً له حيث قال: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ ثم لعن إبليس لأجل مخالفته فقال له: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝٣٤ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الحجر:34-35]، ثم أباح لهم جميع ما في الجنة إلا شجرة واحدة فقال تعالى: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: 35]، ثم لمّا وقع في الزلة تاب عليه فتاب قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه:122]، فالحمد لله رب العالمين عدد نعمه وعدد كل شيء حمداً لا ينفد ولا ينقطع أبد الآبدين ودهر الداهرين.

ثم أكرمه بالاصطفاء فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا﴾ ثم خصَّه بالاجتباء من بعد العصيان فقال: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: 121-122]، ومعلوم أن إكرام الأب سبب لإكرام الابن.

الوجه الخامس: أنه جعل فيهم الأنبياء والرسل والأبرار، كما قال موسى عليه السلام: ﴿يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ [المائدة: 20].

الوجه السادس: أنه تعالى أكرمنا بالخط الحسن فقال تعالى: ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ وقيل: بالصوت الحسن وقيل بالخلق الحسن فقال تعالى: ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ [فاطر: 1].

الوجه السابع: أنه تعالى أكرمنا بالفصاحة والبلاغة فقال تعالى: ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ [الروم: 22]، وقال ﷺ: «**إن من البيان لسحراً**»(*) وقال الحكماء: المرؤ بأصغريه قلبه ولسانه.

الوجه الثامن: أنه تعالى أكرمنا بالأطعمة الصافية اللذيذة كالسمن والعسل، أما السمن فقال فيه: ﴿مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [النحل: 66]، وأما العسل

(*) ـ رواه البخاري: في الأدب المفرد (873) وأبو داود (5011) وأحمد (1/ 269 و273 و309 و313 و327 و332) من حديث ابن عباس وهو حديث صحيح.

فقال فيه: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل: 69]، وكذا الزبد والسكر ثم إنه تعالى أباح لنا الأكل فقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: 32]، ثم من كرمه أنه أعطى هذه الأغذية اللطيفة ثم أوقع في القلب إيثارها على الغير عند الحاجة إليها كما قال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: 9]، حتى يجدونها في القيامة أحسن وأكمل كما قال: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: 96]، وعصمنا من حال من قال في صفته: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾[الأحقاف: 20].

الوجه التاسع: أكرمنا بالأمر والنهي وتشريف التكليف ألا ترى أنه لما كان ولد الإنسان عليه أعز من عبده لا جرم تكون تكاليفه على ولده أكثر مما على عبده.

الوجه العاشر: قال علي بن أبي طالب ﷺ: ولقد كرمنا بني آدم أي: بالدعوة إلى الجنة قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: 25]، فأكرمكم بالدعوة إلى الدار ووعد لنا الملك الجبار كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: 26].

الوجه الحادي عشر: أنه تعالى خلق الخلق أصنافاً مختلفة ثم خصَّ الحيوان بمزيد الفضل والشرف وذلك لأنه لو خلق العرش والسمٰوات والشمس والقمر ولم يخلق حيواناً ألبتة لكان الكل عبثاً، لأنه سبحانه منزه عن النفع والضر وليس هناك حيوان ينتفع به ألبتة وكان خلق هذه الأشياء خالياً عن الحكمة، أما لو خلق العرش وخلق بعوضة وقال: خلقت العرش لتنتفع به هذه البعوضة خرج التخليق عن أن يكون عبثاً ودخل في أن يكون حكمة فثبت بهذا أن العرش يمكن جعله تبعاً للبعوضة ولا يمكن جعل البعوضة تبعاً للعرش فلهذا المعنى قال: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ [البقرة: 28]، ثم فضل الآدميين على كل الحيوانات كما قال: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 70]، ثم فضَّل الذكور على النساء فقال: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: 34]، ثم فضَّل المؤمن على الكافر فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: 47]، ثم فضَّل العلماء والمجاهدين، أما العلماء فقال: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: 11]، وقال في المجاهدين: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 95]، ثم فضَّل الأنبياء فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: 33]، ثم فضَّل أولي العزم من الرسل فقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا

صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: 35]، ثم فضَّل الله منهم أربعة على الباقين وهم الخليل والكليم وعيسى الروح والحبيب محمداً ﷺ فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء: 55]، ثم فضَّل محمداً ﷺ على الكُل فقال: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: 113]، فتكريمك أن جعلك مؤمناً برًّا تقياً عارفاً بربك مجاهداً في طاعة ربك ثم جعلك على ملة إبراهيم ودين محمد عليهما الصلاة والسلام.

الوجه الثاني: في تفسير هذا التكريم أنه أكرمنا بالتقوى فقال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:13] وكان الرسول ﷺ أتقى البشر بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النجم:3]، ثم أبو بكر رضي الله عنه وأرضاه كان أتقى الأمة قال تعالى في حقه: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝٢١﴾ [الليل: 17، 21]، رضي الله عنه. والجنة للمتقين معدّة قال تعالى في صفة الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فالحمد لله الذي جعلنا من أمة أتقى الأنبياء وهو محمّد ﷺ ومن محبي أكرم الأتقياء وهو أبو بكر ﷺ.

البحث الرابع: في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ فإن قال قائل أنكم فسرتم هذا التكريم بهذه الوجوه، إلّا أن فيه أشكالاً وهو أن بني آدم فيهم المؤمنون وفيهم الكافرون فكيف تليق هذه التشريفات بالكافرين؟ والجواب من وجوه:

الأول: فيه تنبيه على دقيقة لطيفة وهو أن من ليس بمؤمن فكأنه ليس من الأحياء بل ليس من الموجودات.

الثاني: ولقد كرّمنا بني آدم معناه ولقد كرّمنا من بني آدم كقوله تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ [الأعراف: 155]،.

الثالث: أن تفسير التكريم بالأحوال التي يشترك فيها المؤمن والكافر وهي الصورة الحسنة والقدّ المستقيم والأغذية اللطيفة وكون جميع المخلوقات مخلوقة لنا، وتخص خواص أهل الإيمان بهم وعند هذا نقول: التكريم عام في حق الكل والاصطفاء خاص ألا ترى أنه تعالى قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: 33]، وقال الله: ﴿يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: 75]، وقال في حق موسى: ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الأعراف: 144]، وقال في حق الأمة: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: 32].

الوجه الرابع: في الجواب: أنه تعالى عم المؤمن والكافر في تسعة أشياء: الخلق والرزق والأقدار وإرسال الرسل وإنزال الكتب والأمر والنهي والترغيب والترهيب، ثم خص المؤمن بسبعة أشياء:

إحداها: الهداية قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: 56].

وثانيها: المحبة والزينة ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: 7].

وثالثها: التيسير ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ [الليل: 7].

ورابعها: التوفيق ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف: 39]، وقال: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾.

وخامسها: كراهة الكفر ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: 7].

وسادسها: القبول ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: 27].

وسابعها: المغفرة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: 48]، فهذا جملة الكلام في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ فالحمد لله كثيراً.

النوع الثاني: من التشريفات المذكورة في هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ والمعنى: أعطيناهم المراكب، أما في البر فهي الخيل والبغال والحمير لأجل ركوبنا والجمال لأجل ركوبنا وحمل أمتعتنا كما قال تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾ [النحل: 7]، وأما في البحر فهي السفن والزوارق، وفيه نكتة وهي أن الدنيا سجن المؤمن ودار البلاء ثم إنه في الدنيا أعطى أنواع المركبات والآخرة دار الرحمة والإحسان فكيف يترك العبد في القيامة بغير مركوب فلهذا قال: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم: 85]، أي: راكبين على الجنائب والنجائب، وقال الصادق: البر هو النفس والبحر هو القلب فمن حمله في النفس فقد أكرم بنور التدبير ومن حمله في القلب فقد أكرمه بنور التأييد، وقال

بعضهم: وحملناهم في البر والبحر أي: تكفلنا تحصيل مصالحهم في جميع الأحوال.

النوع الثالث: من التشريفات في هذه الآية المذكورة قوله تعالى: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي: أطعمناهم الأطعمة اللذيذة كالسمن والعسل والزبد والسكر وما رزقناهم شيئاً من الخبيث والأذى ولم يكلفهم ما لا يطيقونه، وذلك لأن الجن يأكلون العظام ودوابهم يأكلون الروث والبهائم يعلفن التبن والعشب، والطيور تلتقط الحب، والسباع تأكل الجيف أما أغذية بني آدم فهي لطيفة نقية. أيها المسكين إنه ما أطعمك إلا الطيبات فلا تتناول لسوء اختيارك الخمر ولحم الميتة كما قال: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ [الحجرات: 12]، وقال بعضهم: ورزقناهم من الطيبات أي تارة مطبوخاً وتارة غير مطبوخ، وأما سائر الحيوانات فغير مطبوخ أصلاً وقيل: رزقناهم من الطيبات: المعرفة والمناجاة، كما قال ﷺ: «**أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني**»(*).

النوع الرابع: من التشريفات في هذه الآية. قال: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 70]، والكلام على هذه الآية يتعلق بمسألة تفضيل الملك على البشر، وسيجيء هذه المسألة بالاستقصاء إن شاء الله تعالى وبالله التوفيق.

قال كعب الأحبار رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الخلق ثلاثة أصناف: الملائكة ولهم عقول بلا شهوة، والبهائم ولها شهوة بلا عقل، وبنو آدم ولهم كلاهما فمن كانت شهوته راجحة على عقله فهو أخسّ من البهائم كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: 179]، فعلى هذا القياس من كان عقله راجحاً على شهوته وجب أن يكون أفضل من الملائكة وأيضاً فهذه المراتب الأربع بمجموعها غير مذكورة لأحد غير بني آدم وهذا يدل على أنهم أفضل.

واعلم أن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ فيه تشريف عظيم وذلك لأن التكريم عبارة عن جعل الشيء كريماً والكريم هو الذي يكون منشأ الكرم، وهذا تنبيه على أنه تعالى جعل بني آدم مدبراً للحيوانات ومصلحاً لأحوالها وضابطاً لأمورها على الوجه الأصلح الأليق فيصير معناه كونه خليفة الله تعالى في الأرض كما قال جلّ وعز:

(*) رواه البخاري ومسلم وغيرهما من حديث عبدالله بن عمر. ومن حديث أنس بن مالك وأبي هريرة ورروياه من حديث عائشة ورواه البخاري وأبو داود من حديث أبي سعيد، وانظر جامع الأصول (6/ 379_382) بألفاظ مختلفة.

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ ثم قال في المرتبة الثانية: ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ وفيه إشارة [إلى إعلاء درجاته وتعظيم مقاماته][1] والتحقيق فيه هو أن الإنسان كأنه جالس على الحد المشترك الذي هو آخر مراتب العالم الأرضي وأول مراتب عالم السمٰوات فنسبته إلى الأرضيات بالفعل والترتيب ونسبته إلى السمٰوات بالانفعال والقبول (فقوله تعالى)[2]: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ إشارة إلى كونه متصرفاً في السفليات وقوله: ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ إشارة إلى فيضان نور السمٰوات عليه ثم قوله تعالى: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ إشارة إلى التربية الواصلة إليه من عالم الغيب إما إلى نفسه وروحه فبالعلم والحكمة والعصمة والتسديد، وإما إلى جسده وقالبه فبالأغذية الموافقة وأما قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ فهو إشارة إلى دقيقة عجيبة وذلك أن الملائكة أرواح عقلية محضة مطهرة عن علائق الحس والخيال والشهوة والغضب والحيوانات أجساد محضة لا جزء لها من عالم المعقول وعتبات العصمة، وأما الإنسان فهو مستجمع للمنزلتين ومستحضر للدرجتين فهو مع الملائكة ملك ومع السباع سبع ومع البهائم بهيمة ومع الشياطين شيطان فكونه مستجمعاً لكل هذه الأحوال يصلح أن يكون مراداً من قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ والله تعالى أعلم بأسرار كلامه.

---

(1) (إلى أعلاء درجاته) في الأصل: إلى أعلى درجاته.

(2) (فقوله تعالى) في الأصل: «كقوله تعالى».

الفصل الثالث:
في بيان أول الآباء هو آدم عليه السلام

اعلم ان أول المخلوقات على قسمين:

منهم من كان من جملة المكلفين ومنهم من لم يكن كذلك.

وأجمع العقلاء على أن المكلف أفضل ممّن لا يكون مكلفاً وكيف لا يكون كذلك وقد قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: 56]، وهذا نصٌ صريح في أن المقصود من الخلق، إنما هو التكليف وإذا كان كذلك فكلما بقي من الخلق من يكون قائماً بعهدة التكليف بقي عالم الخلق فإذا لم يبق أحد يقوم بأداء التكليف صار عالم المخلوقات عبثاً والحكيم لا يرضى بالعبث وحينئذ تخرب السمٰوات والأرضون وتقوم القيامة. فإذا تأملت هذا علمت أن قيام السمٰوات والأرضين والجبال والبحار ودوران الشمس والقمر والنجوم كلها كالكفيل على قيام ذلك الشخص الأشعث الأغبر الذي ترده الخلق ولا يقبله أحد من الناس وهو قائم بأداء تكليفات الله فهو قائم بأداء التكليف ومشتغل بأداء العبودية والسمٰوات والشمس والقمر والنجوم والعناصر والمواليد باقية تبعاً لبقائه. فجملة ملوك الأرض إنما يأكلون من فتات سفرته وإنما يشربون من بقية ماء في زكوته وهذا هو المراد من قوله ﷺ: **«إن لله عباداً في العالم هم السبب الأصلي في مصالح أهل العالم فبهم يمطرون وبهم يرزقون وفي كل جنس واحد هو أكملهم وأجلهم ولهم أصحاب يقربون منه فذلك الأكمل الأقوى في القيام بعهدة أوامر الله وهو المسمى بقطب الأرض والذين يقربون منه ولكنهم بعدما وصلوا إليه فهم أصحابه»**(*).

إذا عرفت هذا فنقول: أصناف المكلفين أربعة: الملائكة والجن والإنس والشياطين:

(*) لم نره في المراجع التي بحوزتنا وعلامة الوضع عليه ظاهرة.

أما الملائكة فقد روي في الأخبار: إن الله تعالى خلقهم من الريح وهذا الخبر متأكد بوجوه عقلية:

أحدها: أنهم قدروا على الطيران على أسرع الوجوه.

ثانيها: أنهم قدروا على حمل العرش وذلك لأن الريح صاعدة بالطبع يستقل بحمل الأشياء.

ثالثها: أنهم سمّوا روحانيين واشتقاق الروحاني من الريح، وروي في بعض الأخبار أنهم خلقوا من النور، ثم هذه الرواية تأكدت بوجوه عقلية:

أحدها: أنها صفت من الكدورات وأخلصت في طاعة رب الأرض والسمٰوات.

ثانيها: أنها توغلت بقوة نورانيتها في بحار عرفان جلال الله.

ثالثها: أنهم بسبب تلك النورانية تبرؤوا عن المعاصي والذنوب، وعند هذا قال بعض العلماء: الأولى أن نجمع بين الروايتين فنقول: أبدانهم من الريح وأرواحهم من النور فهؤلاء هم سكان عالم السمٰوات.

أما الشياطين فهم كفرة، وأما إبليس فكفره ظاهر لأنه تعالى قال: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وأما سائر الشياطين فهم أيضاً كفرة بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: 121]، ثم إنهم بأسرهم أعداء للبشر بدليل قوله تعالى في صفة إبليس ـ نعوذ بالله منه ـ: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: 50].

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: 112]، أما الجن فمنهم كافر ومنهم مسلم بدليل قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾ [الجن: 14]، فهذا هو الكلام في تفصيل أحوال هذه الأجناس الثلاثة، أما الجنس الرابع وهو الإنسان والبشر فلا شك أن منهم مؤمن ومنهم كافر، وأما أصلهم فمن شخص واحد وهو أول الآباء والذي يدل على وجوب انتهاء هذه الأشخاص البشرية إلى شخص واحد هو أول الآباء وجوه:

obeikandl.com

الحجة الأولى: أنه لو وجد إنسان في الأزل فذلك الإنسان إما أن يقال: أنه كان مسبوقاً بإنسان آخر قبله أو لم يكن مسبوقاً بإنسان آخر، فإن كان مسبوقاً فالأزلي مسبوق بغيره وهذا محال لأن الأزل عبارة عن نفي المسبوقية والجمع بين المسبوقية واللامسبوقية محال، وإن لم يكن مسبوقاً بإنسان آخر فذلك الإنسان هو الإنسان الأول فالآباء منتهية إلى الأب وهو المطلوب.

الحجة الثانية: أن الإنسان لا ينفك عن تغير الحالات وتبدل الصفات وتنقل الصفات لكن تغير الحالات في الأزل محال، وهذا يقتضي أنه لم يوجد أحد من البشر في الأزل وإذا كان كذلك وجب القول بانتهاء الناس إلى الإنسان الأول.

الحجة الثالثة: لو لم يكن للآباء مبدأ (لتوقف)[1] حصول الواحد منا على انقضاء آباء لا نهاية لهم، لكن انقضاء ما لا نهاية له محال والموقوف على المحال محال فكان ينبغي أن لا يوجد هذا الولد وحيث وجد الذين انقضوا لهم مبدأ وأول.

الحجة الرابعة: لو حصل شيء من الناس في الأزل لما فني لأن الأزلي لا يقبل العدم.

الحجة الخامسة: إن الذين وجدوا فيما قبل لو لم يكن لهم مبدأ لكانت أعدادهم غير متناهية، ولو كان كذلك لامتنع الانقضاء عليها لأن انقضاء ما لا نهاية له محال.

الحجة السادسة: إن كل عدد داخل في الوجود فهو قابل للزيادة والنقصان وكل ما كان كذلك فهو متناهٍ وكل ما دخل في الوجود فهو متناه.

الحجة السابعة: مجموع الآباء الذين لا نهاية لهم من الإنسان والآباء الذين لا نهاية لهم من هذه النشأة أكثر عدداً من كل واحد من هاتين الجملتين وحدها، فيكون كل واحد من الجملتين وحده أقل من هاتين الجملتين وحدها فيكون كل واحد من الجملتين وحده أقل من المجموع وأقل من غيره متناهٍ، والمجموع ضعف المتناهي فيكون الكل متناهياً.

(1) (لتوقف) في الأصل: (التوقف).

الحجة الثامنة: كل عدد موجود فهو إما شفع أو وتر وعلى التقديرين فهو متناه، وكل عدد موجود فهو متناه فثبت بهذه البراهين وجوب انتهاء الآباء إلى الأب الأول.

فإن قيل: أنَّا لم نشاهد إنساناً تكون إلا من نطفة الأب في رحم الأم وهذا يقتضي أن يكون كل إنسان مسبوقاً بإنسان آخر.

الجواب ـ وبالله التوفيق ـ: أن المحققين من الفلاسفة اتفقوا على أنه يمكن حدوث الإنسان بالتولد كما يمكن حدوثه بالتوالد واحتجوا عليه بوجوه:

الحجة الأولى: أن بدن الإنسان إنما يتولد من اجتماع العناصر الأربعة وإذا كان كذلك وجب أن يكون المحدث لبدن الإنسان هو الله تعالى، أما المقدمة الأولى فالدليل على صحتها أن هذه الأعضاء الحيوانية لو أحرقت لتحصل عنها ماء ورماد وتصاعدت أبخرة كثيرة عنها وذلك يدل على أن هذه الأبدان الحيوانية مؤتلفة من هذه العناصر، وإنما قلنا أنه لما كان الأمر كذلك كان محدثها هو الله ﷻ وذلك لأن لهذه العناصر الأربعة طبائع متضادة متنافرة موجبة للتباين مانعة من الاجتماع، وإذا كان كذلك فهي مع كونها متسارعة إلى التباين لما اجتمعت افتقر اجتماعها إلى جامع وذلك الجامع إما أن يكون (قوة) حالة منها أو شيئاً خارجاً عنها، والأول محال لأن القوة الحالة فيها إما أن يكون حالة في بسائطها أو في الجسم المركب المتولد من امتزاجها والأول باطل لأنا بينّا أن الطبائع الحالة في ذلك البسائط موجبة للتباين والتنافر فلا تكون موجبة لاجتماعها وامتزاجها. والقسم الثاني أيضاً باطل لأن القوة الحاصلة للجسم المتولد عن امتزاجها متقدم عليه تقع لتلك الامتزاجات فتقدم عليها، والمتأخر لا يكون نفس المتقدم فثبت أن الجامع لهذه العناصر لا قوة حالة في بسائطها ولا قوة حالة في الجسم المتولد من امتزاجها، فإذاً ذلك الجامع شيء مباين عنها وهو الله تعالى فثبت أن المحدث لهذه الأبدان الحيوانية هو الله ﷻ، وإذا كان كذلك كان قادراً على إحداثها كيف شاء وأراد فيكون قادراً على إحداثها من غير أب وأم وهو المطلوب.

الحجة الثانية: أن الكيفية المزاجية الحاصلة في أبدان الحيوانات إنما تحدث بإيجاد الله تعالى لا لامتزاج هذه العناصر، ومتى كان الأمر كذلك وجب أن يكون الله تعالى قادراً على إيجاد هذه الكيفية الملائمة كيف شاء وأراد من غير واسطة الأب والأم.

وإنما قلنا: أن حدوث هذه الكيفية ليس لامتزاج هذه العناصر وذلك لأن الحار والبارد فإما أن يكون تأثير كل واحد منهما في كسر الآخر معاً أو على التعاقب والأول باطل لأن العلة موجودة مع المعلول وعلة انكسار كل واحد منهما هي قوة الآخر، فلو حصل الانكسار لوجب أن يكون كل واحد منهما قوياً حال كون كل واحد منهما منكسراً وذلك محال والثاني أيضاً محال لأن أحدهما انكسر بالثاني فامتنع أن يصير المغلوب بعد صيرورته مغلوباً غالباً فعلى هذا التقدير لا يكون هذا مزاجاً بل يكون كوناً وفساداً، ولما بطل هذان القسمان ثبت أن حصول هذه الكيفية الملائمة للحياة ليس لأجل امتزاج الطبائع والعناصر بل هي كيفية يخلقها الله تعالى ويحدثها ابتداء وإذا كان الأمر كذلك كان الله قادراً على خلقها كيف شاء وأراد فيكون قادراً على إحداثها في الجسم من غير سبق الأب والأم وهو المطلوب.

الحجة الثالثة: هب أن حدوث تلك الكيفية إنما يكون بسبب امتزاج العناصر واجتماع الطبائع لكنا نقول: إن ذلك المزاج إنما حدث لأنها أجزاء مخصوصة مقدرة اجتمعت واختلطت، فلزم من اجتماعها واختلاطها تأثر بعضها عن البعض ولزم من ذلك التأثير حصول المزاج المخصوص للإنسان ولزم من حصول ذلك المزاج المخصوص حدوث[1] النفس الإنسانية، فإذاً مهما حصلت تلك الأجزاء المخصوصة بذلك التصوير المخصوص وحصل اختلاط بعضها بالبعض حدث الإنسان بالتولد لكن حدث في تلك الأجزاء المخصوصة بذلك التصوير المخصوص وحصول اختلاط بعض تلك الأجزاء بالبعض أمر ممكن والمعلق بالممكن ممكن، فحدوث الإنسان (عن)[2] سبيل التولد أمر ممكن، فهذه نكتة موجهة جداً على أصول الفلاسفة.

الحجة الرابعة: إن انقطاع النوع أمر ممكن وإذا كان كذلك وجب أن يكون الحدوث على سبيل التولد ممكناً، أما قولنا: أن انقطاع النوع ممكن فلأنه ليس بواجب أن يكون عن كل إنسان إنسان،[3] وإذا كان هذا الاحتمال قائماً في الكل فثبت أن انقطاع النوع أمر ممكن وإذا ثبت هذا وجب أن يكون الحدوث على سبيل التولد أمراً

---

(1) المخصوص حدوث في الأصل: ورد بعد المخصوص هذه العبارة [من ذلك التأثير حصول المزاج] وهي زائدة لا حاجة إليها.

(2) [عن] زيادة يقتضيها السياق.

(3) إنسان في الأصل: إنساناً.

ممكناً إذ لوجب أن لا يقع الانقطاع الذي لا عود له.

الحجة الخامسة: أنّا نشاهد حدوث كثير من الحيوانات بالتولد فقد يحدث حيّات من الشعير وعقارب من التبن.

والفار متولد من المدر والضفادع متولد من المطر، وجميع هذه الأشياء كما تحدث بالتوالد فهي أيضاً تحدث بالتولد، وليس إذا انقطع هذا التولد فلم يشاهد في سنين كثيرة وجب أن لا يكون له وجود في القدرة عند تشكل قادر يحصل في الفلك لا تتكرر إلى حين.

الحجة السادسة: إن أكثر الناس يتعجبون من تولد الحيوانات من الطين ولا يعجبون من تولدها في الرحم من الماء المهين، وهذا أعجب في الحقيقة وذلك لأن الناس يقدرون على تصوير الحيوانات من الطين ومن الخشب ومن الحديد كما هو موجود ولا يمكنهم أن يصوروا حيواناً من الماء لأن الماء جسم سيّال لا تتماسك فيه الصور، فكون هذه الحيوانات في الأرحام من الماء المهين أعجب[1] في الحكمة وأعظم في القدرة من تكونها في الطين.

وإن قال قائل: إذا كان الصانع المختار قادراً على خلق الولد من دون الأبوين فلِم لم يخلق هذا لتكون الدلالة أقوى.

فالجواب أن الحكمة فيه من وجوه:

الأول: لو خلق البشر من غير هذا الوجه لبطل التعارف بالأنساب وفي بطلانه سقوط المصالح الكثيرة بين الناس في المعاملات وقد نبه الله تعالى عليه فقال جلّ وعز: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات: 13].

الثاني: لو لم يحصل التوالد لبطلت صلة الرحم وزال تعطف القرابات وبطل تلذذ الآباء بالأبناء وتعزز الأبناء بالآباء، ومنه تزول مصالح كثيرة من العالم، وقد نبه الله تعالى عليه فقال جلّ من قائل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا فَجَعَلَهُۥ نَسَبٗا وَصِهۡرٗاۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرٗا﴾ [الفرقان: 54]، فكان معناه ـ والله أعلم ـ جعله نسباً لما فيه من المصالح

(1) أعجب في الأصل: له عجب.

اللطيفة وكان قادراً أن يوجده ابتداء.

الثالث: أن العاقل قد أمر بالتواضع والاجتناب عن الكبرياء، ثم إن العاقل إذا علم أنه خلق من نطفة قذرة وسار في مخرج البول مرة بعد مرة ونشأ في نجاسة يغتذي منها ونبت لحمه وعظمه منها كان كاسر النخوة، وقد نبه الله تعالى على هذا فقال: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ [المرسلات: 23]، فمن علم أن من كان كذلك لم يكن له أن ينكر بل الواجب عليه أن يذل لخالقه ويخضع لربه والله أعلم فثبت بهذا أن أصول الفلسفة شاهد بإمكان هذا المعنى. وأما شهادة الأصول الإسلامية على صحتها فلا شبهة فيها فعلمنا أن الطعن فيه باطل.

إذا ثبت ما ذكرنا فنقول: أن القرآن دل على أن ذلك الأب الأول هو آدم ﷺ قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: 1].

واعلم أن في هذه الآية أسراراً عجيبة وذلك لأنه ﷻ افتتح سورتين من كتابه العزيز بهذا اللفظ:

أحدها: أول سورة النساء فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النساء: 1].

والثانية: سورة الحج فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: 1] أما السورة الأولى فهي الرابعة من سور النصف الأول من القرآن فإن أولها الفاتحة ثم البقرة ثم آل عمران ثم النساء، وأما سورة الحج فهي أيضاً السورة الرابعة من النصف الثاني فإن أولها سورة مريم ﷺ، ثم طه، ثم الأنبياء ﷺ، ثم الحج، وفي كيفية ترتيب هاتين السورتين عجائب:

أحدها: أن السورة الأولى إشارة إلى حال المبدأ في كيفية التكوين والإيجاد فإنه قال: ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾.

والثاني: إشارة إلى حال المعاد في كيفية الإعدام والإفناء فإنه قال: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ ثم لا شك أن الإيجاد مقدم على الإفناء ولهذا قدمه الله تعالى في الذكر فقال: ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: 26]، فقد ذكر الإبقاء على ذكر النزع فلهذا السبب قدم سورة النساء على سورة الحج.

اللطيفة الثانية: أن الإيجاد يشبه الرحمة والإعدام يشبه الغضب، وقد قال

تعالى: (سبقت رحمتي غضبي)، فلا جرم قدم سورة الإيجاد على سورة الإفناء.

اللطيفة الثالثة: أنه تعالى قال هناك: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ ولم يقل في سورة الحج: ربكم الذي أقام زلزلة الساعة، نظيره قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ [الأنعام: 54]، وقال: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِى ٱلۡقَتۡلَى﴾ [البقرة: 178]، و﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: 183].

فإن قيل: اسم الربوبية منشأ اللطف والرحمة والكرم فكيف يليق بهذه الكلمة التخويف الشديد الحاصل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىۡءٌ عَظِيمٌ﴾؟.

قلنا: من تربية المؤدب الرحيم المشفق أن يضرب ولده وأن يهدده حتى يزداد سعيه في طلب المكارم والمعالي، وهذا هو الجواب عن سؤال من سأل عن قوله تعالى: ﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 31-32]، فإنه يقال: إن قوله: ﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ غاية التهديد وقوله: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إشارة إلى تعديد الآلاء والنعماء فكيف يليق هذا بذلك؟ لأنا نقول: التهديد من الأب المشفق الرحيم في حق الولد الكسلان المغفل يكون من أعظم النعم.

الوجه الثاني: في الجواب أن المرأة ترضع ولدها أولاً سنتين، ثم أنها تلطخ حلمة ثديها بالصبر والأشياء المرة ثم تضعها في فم الصبي كأنها تقول: إني لا أفطمك بهذه المرارة شحاً عليك وإنما ذلك لغرض آخر وهو أنه خلق لك في الدنيا نعيم لا يحصى ولا يتناهى ولا يتأتى لها إلا بفعل ذلك ولا تنالها إلا بهده المصّة الواحدة، فتجرّع هذه المرارة لتصل بعدها إلى الخيرات الجمة الكثيرة، فكذا الرب الرحيم سبحانه وتعالى أشفق بعبده منها بابنها أعد لك في الجنان ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر لكنك لا تصل إليها إلا بتجرع كأس الصبر عن المحرمات ثم تجرع كأس الموت في هذه الدار ثم يطول حبسك في القبر ما شاء الله ثم ينقلك إلى محفل القيامة ثم ينقلك إلى الجنة فكان الموت وتخريب هذا العالم من أعظم النعم في حقك فلهذا المعنى قال تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىۡءٌ عَظِيمٌ﴾.

ومن الآيات الدالة على أن أول الآباء هو آدم عليه السلام قوله تعالى في سورة

الأعراف: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: 189]، إلا أن فيه أشكالاً وهو أن آخر هذه الآية دل على أن هذه النفس الواحدة أقدمت على الشرك حيث قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾ [الأعراف: 190]، ومعلوم أن الشرك ـ نعوذ بالله منه ـ لا يليق بآدم عليه السلام فلا جرم قال المحققون: المراد من هذه النفس الواحدة قصي بن كلاب بن مرة، والشرك الصادر منه هو أنه سمى أولاده بعبد مناف وعبد قصي وعبد الدار، والله أعلم.

opeikandl.com

الفصل الرابع
في كيفية تخليق آدم عليه السلام

اعلم أنه تعالى ذكر في كيفية تخليق آدم ﷺ آيات:

إحداهما: أنه مخلوق من التراب، قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: 59]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۝٢٠﴾ [الروم: 20]، وقال في حق أولاد آدم: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۝٥٥﴾ [طه: 55]، وقال في سورة النجم: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ [النجم: 32]، وقال في سورة نوح ﷺ: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح: 17 - 18]، واعلم أن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: 59] ثم قال له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ أشكالاً وهو أن ظاهر الآية يقتضي أن قوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ متأخر عن تخليق آدم وهو محال لأنه لا بد أن يكون قوله كن فيكون متقدماً على وجود آدم في الوجود، والجواب من وجهين:

أحدهما: أن يحمل خلق آدم على خلق بدنه ويحمل قوله: كن فيكون على خلق روحه.

الوجه الثاني: أن يحمل الخلق على التقدير. وعند هذا يزول الإشكال لأنه يحصل التقدير في علم المقدّر[1] أولاً ثم يحصل التخليق والتكوين مفرعاً على ذلك التقدير، والله أعلم.

والآية الثانية: ذكر فيها أنه مخلوق من الماء، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًاۗ﴾ [الفرقان: 54]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍۖ﴾

---

(1) المقدر في الأصل: المقدار.

[النور: 45]، وقال عز وجل: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: 20]، والآية الثالثة ذكر فيها أنه مخلوق من الطين، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: 7 - 8]، وقال عز وجل أيضاً: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص: 71 - 72]، والآية الرابعة ذكر فيها أنه خلقه من سلالة من طين قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: 12].

الآية الخامسة: أنه مخلوق من لازب، قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ﴾ [الصافات: 11].

الآية السادسة: أنه مخلوق من صلصال، قال تعالى: ﴿مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ [الرحمٰن: 14].

الآية السابعة: أنه مخلوق من صلصال من حمأ مسنون قال تعالى: ﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: 28].

الآية الثامنة: أنه مخلوق من العجل، قال تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنبياء: 37].

الآية التاسعة: قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ إلى قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ [البلد: 1 - 4].

الآية العاشرة: قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ [الروم: 54].

فهذا مجموع هذه المراتب ولنشرح كل واحدة منها فنقول:

أما المرتبة الأولى: فهي أنه مخلوق من التراب والطين، فاعلم أن إبليس ـ نعوذ بالله منه ـ طعن فيه بسبب كونه مخلوقاً من التراب وفضّل نفسه عليه بسبب كونه مخلوقاً من النار والنار قوية تأكل التراب فلهذا قال: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: 12]، فكيف يليق أن يسجد القوي للضعيف وقد ذكر العلماء في تفضيل التراب على النار وجوهاً:

الحجة الأولى: أن التراب في غاية التواضع والنار في غاية التكبر، فلما خلق آدم من التراب ظهر منه التواضع والتضرع فقال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: 23]، ولما خلق إبليس من النار ظهر منه التكبر فقال: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف:12] وقال: نعوذ بالله منه ـ: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ [الإسراء: 62].

الحجة الثانية: أن التراب وإن كان مظلماً إلا أنه ستار للعيوب، والنار وإن كانت مضيئة إلا أنها تدل على العيوب وتظهر الفضائح.

الحجة الثالثة: أن التراب يطفىء النار فلهذا السبب كان وجود آدم ﷺ سبباً لانطفاء رونق إبليس، وأيضاً فالشهوة والغضب والحرص مخلوقة من النار ألا ترى أن الشهوة لا تعمل في الغذاء إلا بواسطة الحرارة، وأما الغضب فنار ظاهر وأما الحرص فمن النار كذلك[1] وذلك لأن خاصية الحرص أن الإنسان كلما وجد من الدنيا أكثر صار حرصه أعظم كالنار كلما ألقيت فيها الخشب كان اشتعالها أعظم واحتياجه إلى الحطب الكثير أشد فثبت أن الشهوة والغضب والحرص كلها مخلوقة من النار، ثم إن الله تعالى أودع هذه الصفات في ذاتك فلا جرم خلقك من الطين وهو تراب وماء وكل واحد منهما سبب لانطفاء النار فكان المقصود من خلق الإنسان من التراب أن تنطفىء هذه النيران ويبقى الإنسان مصوناً في الدنيا من الخذلان وفي الآخرة عن دركات النيران.

الحجة الرابعة: أنه سبحانه إنما خلق الإنسان لخلافة الأرض كما قال تعالى: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فخلقك من الأرض فإن خليفة الأرض إذا كان مخلوقاً من الأرض كان أرحم بأهل الأرض.

الحجة الخامسة: أراد إظهار القدرة فخلق الشياطين من النار التي هي في غاية الإشراق والضوء ثم ابتلاهم بظلمات الجهالات والضلالات، وخلق الملائكة من الهواء الذي هو ألطف وأعطاهم كمال القوة والقدرة، وخلق السمٰوات من أمواج مياه البحر وأبقاها معلقة في الهواء موصوفة بكمال الشدة كما قال في صفتها: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: 32] وقال: ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [قٓ: 6]، وقال: ﴿سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ: 12]، وخلق آدم من التراب الذي هو أكثف الأشياء وأشدها ظلمة وأعطاها الطاعة

(1) كذلك في الأصل: فكذلك.

والمحبة والمعرفة، التي هي أنور الأشياء وأضوؤها والمقصود من جميع ذلك إظهار الضد ليكون ذلك برهاناً باهراً وبياناً ظاهراً على أنه هو الخالق من غير احتياج إلى أحد والمقدر والمدبر فلا مزاج ولا علاج.

الحجة السادسة: أن التراب سبب الوصلة دليله قوله تعالى: ﴿أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ﴾ [البقرة: 261]، والنار سبب القطيعة ولما كان الأمر كذلك لا جرم حصل لآدم ﷺ شرف الوصلة ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى وحصل لإبليس صفة القطيعة ﴿فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ﴾.

الحجة السابعة: التراب فيه أمانة والنار فيها خيانة، أما الأول فلأنك إذا بذرت فيها كفاً من الحنطة ردت عليك جراباً من الحنطة قال تعالى: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾ [الأعراف: 58] الآية، وأما أن في النار خيانة فلأنها تحرق الأشياء وتفنيها، وأيضاً لما كان من التراب لا جرم قبل الأمانة كما قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ﴾ وحفظها على أحسن الوجوه ولما كان في النار خيانة لا جرم أن إبليس عبد ربه سنين ثم خان في تلك العبادة كما أخبر الله عنه بقوله: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [صَ: 74].

الحجة الثامنة: أن التراب طاهر وطهور قال ﷺ: «**التراب طهور المسلم..**» والماء أيضاً طاهر وطهور قال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا﴾ وجناب الحق سبحانه وتعالى طيب طاهر قال ﷺ: «**إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا الطيب**»[1] فلما كان التراب والماء طاهرين طيبين لا جرم كان آدم ﷺ لكونه مخلوقاً منهما طاهراً طيباً ولما كان كذلك مخصوصاً من رحمة الله بالمزيد كما قال تعالى: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ [النور: 26].

الحجة التاسعة: رُوي أن نبينا محمداً ﷺ لما دخل المدينة طمع الأغنياء أن ينزل معهم في دورهم وكانوا يأخذون بزمام الناقة ليجذبوها إلى بيوتهم فقال ﷺ: «**دعوها فإنها مأمورة**» فتركوها فسارت حتى وصلت إلى دار أبي أيوب ﷺ فبركت هناك وما كان سبب ذلك إلا غاية فقر أبي أيوب وشدة انكساره وهذا أيضاً متأيد بقوله ﷺ: حاكياً عن ربه جل جلاله: «**أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي**»[2].

---

(1) رواه مسلم (1015) وغيره من حديث أبي هريرة.

(2) رواه البيهقي في دلائل النبوة 2/ 509 من حديث عبد الله بن زيد.

إذا عرفت هذا فنقول: التراب أعظم المخلوقات انكساراً وتذللاً وتواضعاً لأنه تحت جميع الأجسام، والخلق يضعون أقدامهم عليه ويمشون عليه ولما كان أعظم الأشياء نقصاً وحقارة هو التراب لا جرم صار محلاً ومنزلاً لمحبة رب العالمين قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ وأما النار فإنها تدعي العلو والرفعة والنورانية فكانت صفة النار صفة لفرعون كما أخبر الله في صفته: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ [القصص: 4].

وكانت صفة التراب صفة موسى عليه السلام قال: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: 83]، فلا جرم صار التراب أعز الأشياء والنار أذلها.

الحجة العاشرة: النار يعلوها الدخان المظلم فنوره تحتاني وظلمته فوقاني، وأما التراب فظلمته تحتاني ونوره فوقاني: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: 10]، وأيضاً النار حسنة المنظر قبيحة المخبر فهي كالمنافق وكالمرأة الفاجرة، والأرض قبيحة المنظر حسنة المخبر وأيضاً النار ظاهرها يسرّ وباطنها لا يسر، والأرض على الضد من ذلك فالحاصل أن باطن الأرض كله منفعة وباطن النار كله مضرة، ونظرة الخالق تعالى على الباطن والأسرار لا على الظواهر. فلا جرم عامل آدم بحسب باطنه وإبليس أيضاً على وفق باطنه.

الحجة الحادية عشرة: إن نهاية السفل هي الأرض ونهاية العلو هي العرش فالأرض أحد أركان عالم الأجسام وأما النار فليست كذلك لأنها ليست في غاية العلو فإن السمٰوات والكرسي والعرش فوقها ولا غاية في السفل فإن الهواء والماء والأرض تحتها فما كانت النار كاملة في مقام من المقامات.

الحجة الثانية عشرة: إن النار سريعة الاشتعال سريعة الانطفاء كبيرة الاحتياج إلى الغذاء قليلة مدة البقاء، أما الأرض فإنها تغذي ولا تتغذى وتبقى ولا تفنى فثبت فضل التراب على النار.

الحجة الثالثة عشرة: من الكلمات المشهورة قولهم: كل شيء يرجع إلى أصله، فكأنه قيل: يا إبليس: «خلقتك من النار فيكون مردّك إلى النار» وأما آدم فهو مخلوق من الطين والطين خاصيته التواضع والتواضع سبب القرب من رحمة رب

العالمين فلا جرم كانت عاقبة آدم هو [رحمة][1] رب العالمين كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾.

الحجة الرابعة عشرة: أن الأرض في نفسها ليست بحسنة ولا طيبة الرائحة إلا أنها تخرج جميع الأشياء التي لها حسن الوجه وطيب الرائحة، والنار حسنة الوجه إلا أنها سبب لحدوث الأشياء القبيحة وهي الاحتراق والدخان والفساد وقد ثبت أن العبرة بالسيرة لا بالصورة كما حققناه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾.

الحجة الخامسة عشرة: أن التراب والماء لا يحصل الانتفاع بهما إلا عند فقدان الريح فإنه إذا وصل الريح إلى التراب صار غباراً مؤذياً وإذا وصل الريح إلى الماء تموج وخرج عن حد النفع وإذا وصل إلى النار أطفأ النار، فكأنه قيل لآدم: كان في قلب إبليس ريح التكبر فانطفأ ناره بتلك الريح فإياك ثم إياك احترز عن ريح التكبر لئلا يصير التراب الذي خلقت منه غباراً والماء الذي خلقت منه موجاً مهلكاً، فثبت من هذه الوجوه فضل التراب على النار.

وأما المرتبة الثانية: في خلقة آدم عليه السلام كونه مخلوقاً من الماء قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ وقال جل وعز: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ [القيامة: 37]، وفيه فوائد:

الفائدة الأولى: أن تكون صافية تتجلى فيها نور جلال الله تعالى.

الثانية: أن يكون سياراً برأسه فيكون أبداً عابداً لله تعالى على قمة رأسه قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النحل: 49].

الثالثة: أن يكون طاهراً في ذاته، قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ وقال ﷺ: **«من توضأ تحاتت ذنوبه من جسده كما تتحاتت الورق من الشجر زمن الخريف»**[2].

الرابعة: فيه أنه إذا كان استعمال الماء في ظاهر الأعضاء يوجب زوال الذنوب

---

(1) [رحمة] زيادة يقتضيها السياق.

(2) رواه أحمد: 5/ 437 و439 والدارمي (725) والطبراني في الكبير (6150، 6151، 6152) من حديث سلمان.

فلأن تكون خلقة أصل الأعضاء من الماء دافعاً لتمكن الذنوب كان أولى.

المرتبة الثالثة: في تخليق آدم ﷺ كونه مخلوقاً من سلالة من طين والسلالة هي فعالة بمعنى المسلولة لأنها هي التي تسل من الطين، والحكمة فيه أن يمتزج الكثيف واللطيف والمتحرك والساكن والكدر والصافي فيكون ذلك دليلاً على فردانية الصانع القادر كما قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ وفيه فائدة أخرى وهي أن من مشى على الطين أو انزلق رجله سقط وتلوث ثيابه ولكنه لا يهلك ولا تنكسر أعضاؤه، فلما كان الإنسان موصوفاً بهذه الشهوة التي هي منبع الفساد وبالغضب الذي هو منشأ سفك الدماء علم الحق جل جلاله أنه لا بد أن ينزلق رجله في سلوك طريق طاعة الله فإذا كان طيناً تلوث بالمعصية لكنه لا يهلك ولا ينكسر شيء من أعضائه بل يقوم سليماً كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزمر: 53].

المرتبة الرابعة: في تخليق آدم ﷺ كونه مخلوقاً من سلالة من طين والسلالة فعالة وهي بمعنى المسلول لأنها هي التي تسل من اللطف أجزاء الأرض فاعلم أنه روي في الخبر أنه قال ﷺ: «**إن الله خمر طينة**[1] **آدم بيده أربعين صباحاً**» فهذه اللطافة إنما حصلت لذلك الطين بسبب هذا التشريف فقال تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص: 75]، وهذا كمال التشريف في حق آدم ﷺ.

فإن قيل: فقد قال تعالى في صفة تخليق الحيوانات: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا﴾ [يس: 71]، فبين أنه تعالى إنما خلق الأنعام بالأيدي وذكر أنه إنما خلق آدم باليدين وهذا يقتضي فضل الأنعام على الإنسان.

فالجواب ـ وبالله التوفيق ـ أنه تعالى ذكر دقيقة تزيل هذه الشبهة فإنه قال: ﴿خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ [يس: 71] فبين أنه تعالى إنما خلق الأنعام بالأيدي لأجل مصالح الناس ورعاية لمهماتهم، فكان هذا التشريف عائداً إلى البشر أيضاً وفيه تنبيه على دقيقة كأنه قال: هيأت ذلك باليدين وهيأت ما تحتاج إليه بعد الحياة من المأكول والمشروب والملبوس والمركوب بالأيدي وذلك ليعلم أن

---

(1) قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الأحياء (4/ 344) رواه أبو منصور الديلمي من مسند الفردوسي من حديث ابن مسعود وسلمان الفارسي بإسناد ضعيف جداً وهو باطل.

عنايته بك بعد حياتك أشد من عنايته بك قبل وجودك.

ومن النكت اللطيفة هاهنا ما سمعت أنه كان بنيسابور امرأة من عقلاء المجانين كان يقال لها: نازلين فكانت تقول: مسكين ابن آدم جسده في يد الحق كما قال: «**خمر طينة آدم بيده أربعين صباحاً**» وقلبه في إصبع الحق كما قال الخبر: «**قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمٰن**»[1] الخبر ثم إنه مع ذلك لا يملك أمر جسده ولا أمر روحه صار التكاليف متوجهة عليه والأوامر الإلٰهية لازمة عليه.

المرتبة الخامسة: كونه مخلوقاً من طين لازب، واللازب هو اللازم وإنما سمي لازباً ولازماً لأن اللازم واللازب هو الملتصق بالغير، والإنسان أكثر الأشياء خلقة فلا جرم كان أكثر الأشياء تمسكاً بذيل رحمة الله تعالى وأشد الأشياء التصاقاً بجناب فضله وإحسانه.

المرتبة السادسة: كونه صلصالاً وهو الذي إذا حرك تصلصل كالخزف الذي تسمع له صلصلة من داخله.

والصفة الثانية: كونه حمأ وهو الذي استقر في الماء وتغير لونه إلى السواد.

والصفة الثالثة: المسنون وهو الذي تغيرت رائحته ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ [البقرة: 259]، أي: لم يتغير، وأصله يتسنن. قال تعالى: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ [محمد: 15]، أي: غير متغير. واعلم أن كونه صلصالاً إشارة إلى غاية ضعفه وقلة بقائه فإن الطين الذي يصير صلصالاً ينكسر ويتفرق بأدنى سبب، وكونه من حمأ إشارة إلى الأخلاق الظلمانية البهيمية التي منشؤها قوة الشهوة، وكونه مسوناً وهو الرائحة المؤذية إلى الأخلاق السبعية التي منشؤها الغضب، ونظيرة قول الملائكة عليهم السلام: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: 30]، والفساد منشؤه من الشهوة، وسفك الدماء منشؤه من الغضب.

(1) 17 ـ رواه مسلم (2654) من حديث عبد الله بن عمرو بلفظ: «**إن قلوب بني آدم بين إصبعين من أصابع الرحمٰن. .**» الحديث. ورواه الترمذي: (1241) من حديث أنس بلفظ: «**إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله. . .**» الحديث.

وأما المرتبة السابعة: وهي كونه صلصالاً كالفخار، فاعلم أن الصلصال قبل أن يصير فخاراً يصلح لأمر من الأمور فإذا جعل فخاراً حصل لأن يجعل فيه الماء، وذلك الماء إذا استقر فيه صار صافياً عذباً زلالاً فيكون ذلك إشارة إلى صيرورته صالحاً لحفظ معنى العبودية وزلال المعرفية.

أما المرتبة الثامنة: وهي قوله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾.

فأشهر الأقوال فيه أن المراد منه هو آدم عليه السلام وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والسدي والكلبي، قال مجاهد: خلق الله آدم بعد كل شيء في آخر نهار الجمعة فلما دخل الروح رأسه ولم يبلغ أسفله قال: يا رب استعجل تمام خلقتي قبل غروب الشمس، قال مجاهد: فذاك قوله: خلق الإنسان من عجل.

وعن السدي قال: لما نفخ فيه الروح وتمكن الروح في رأسه عطس فقالت له الملائكة عليهم السلام: قل الحمد لله، فلما قال ذلك قال الله سبحانه: يرحمك ربك، فلذلك خلقتك؛ فلما دخل الروح في عينه نظر إلى ثمار الجنة، فلما دخل الروح جوفه اشتهى الطعام فوثب إلى ثمار الجنة قبل أن يبلغ الروح إلى رجليه، فهذا هو الذي أورث أولاده العجلة، **ثم للمفسرين أقوال في العجل:**

الأول: وهو قول المحققين خلق الإنسان من عجل أي: خلق عجولاً وذلك يدل على المبالغة كما يقال للرجل الذكي: هو نار يشتعل. والعرب قد تسمي الرجل بما يكثر منه فيقولون: ما أنت إلا أكل ونوم، وما هو إلا إقبال وإدبار هذا الوجه يتأكد بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: 11] قال المبرد: خلق الإنسان من عجل أي: من شأنه العجلة كقوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ أي: ضعيفاً.

الثاني: قال أبو عبيدة هو الطين بلغة حمير وأنشد:

«والنخل ينبت بين الماء والعجل» أي: بين الماء والطين.

الثالث: قال الأخفش: من عجل أي: من تعجيل من الأمر، وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾.

الرابع: من العجل أي: من الضعف وهو قول الحسن.

المرتبة التاسعة: قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾ قيل في الكبد وجهان: قال صاحب الكشاف: أصله من قوله: كبد الرجل كبداً فهو أكبد إذا مرض كبده وانتفخ، ثم اتسعت في هذا اللفظ حتى استعمل في كبد أي: تعب ومشقة ومنه اشتقت المكابدة، وقال آخرون: الكبد شدة الأمر ومنه تكبد اللبن إذا غلظ واشتد، ومنه الكبد كأنه دم تغلظ واشتد، والفرق بين هذين القولين أن الأول جعل اسم التكبد موضوعاً للكبد ثم اشتق منه الشدة وفي الثاني اللفظ موضوع للشدة والغلظ ثم اشتق منه اسم هذا العضو المخصوص.

الوجه الثاني: أن الكبد هو الاستواء والاستقامة.

الوجه الثالث: أن الكبد شدة الخلق والقوة.

إذا عرفت هذا فنقول: أما على الوجه الأول فيحتمل أن يكون المراد منه شدائد الدنيا فقط، ويحتمل أن يكون المراد شدائد التكاليف فقط، وأن يكون شدائد الآخرة فقط وأن يكون المراد كل هذه الوجوه. أما إذا حملنا على شدائد الدنيا فيكون قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ [البلد:4]: أي خلقناه في أطوار كلها شدة ومشقة تارة في بطن الأم، ثم زمن الإرضاع، ثم بعد البلوغ تحصيل وجوه المعاش ودفع ضرر الأعداء، ثم دفع ضرر الآلام والأسقام والتصون من الآفات النازلة من السماء والخارجة من الأرض. أما الثاني وهو حمله على شدائد الدين وهو توجه التكاليف الشاقة عليه، قال الحسن: تكابد الشكر على السراء والصبر على الضراء وتكابد المحن في أداء العبادات والرضى بقضاء الله تعالى عند نزول الآفات والبليات. وأما الثالث وهو حمله على مشاق الآخرة فالموت ومسائلة الملكين وظلمة القبر ثم البعث والعرض على الله تعالى إلى أن يستقر به القرار إما في الجنة أو في النار ـ ونعوذ بالله منها ـ.

وأما الرابع: وهو أن يكون اللفظ محمولاً على الكل فهو الحق وعندي وجه آخر وهو أنه ليس في هذه الدنيا لذة ألبتة بل ذاك الذي يظن أنه لذة فهو خلاص عن الألم، فإن ما يتخيل من اللذة عند الأكل فهو خلاص عن ألم الجوع وما يتخيل من اللذة عند اللبس فهو خلاص عن ألم البرد والحر، فإذا تفكرت علمت أنه ليس للإنسان إلا الألم والخلاص منه فهذا معنى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾

أي: هو في طول عمره في مكابدة الآلام ومقاساة التعب والمؤذيات، وعند هذا الحرف يظهر أنه لا بد في حكمة الحكيم المدبّر لهذا العالم من الحشر والنشر والبعث يوم القيامة لأن الحكيم الذي دبّر خلق الإنسان إن كان مطلوبه أن يؤلم الإنسان فهذا لا يليق بالرحمة، وإن كان مطلوبه أن لا يتألم ولا يلتذ ففي تركه للعدم حصول لهذا المطلوب وإن كان مطلوبه إيصال اللذة والنفع إليه فقد بيّنا أنه ليس في هذه الحياة لذة وأنه تعالى خلق الإنسان في هذه الدنيا في كبد ومشقة ومحنة، فإذاً لا بد بعد هذه الدار من دار أخرى لتكون تلك الدار دار السعادات والكرامات والخيرات.

وأما على الوجه الثاني: وهو أن يفسر الكبد بالاستواء فقال ابن عباس: في كبد أي: قائماً منتصباً وسائر الحيوان تمشي منكسة فهذا امتنان على الإنسان بهذه الخلقة.

وأما المرتبة العاشرة: من مراتب خلقة الإنسان فهي قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ فاعلم أن آثار ضعف الإنسان لائحة كما قال بعضهم: تميته[1] الغرقة وتؤذيه البقة وتقتله الشرقة.

قال هارون الرشيد لابن السماك: عِظني فقال: إن عطشت ولم تجد شربة من الماء إلا بكل ما تملك ماذا تعمل؟ قال: أعطي وآخذ، قال: فإن احتبس ذلك الماء ولم يخرج إلا ببذل كل ما تملك ماذا تعمل؟ قال: أعطي حتى يخرج، قال: فإذا الشربة الواحدة من الماء قيمة ما تملك مرتين فما تساوي ملكك شربة ولا بولة.

وأيضاً فإن البقة أصغر الحيوانات جثة وأضعفها بنية ثم إنها قتلت نمروذ أكبر ملوك بني آدم وأطغاهم وأعظمهم[2] سلطانًا ،ويروى: أن الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حضر عند الملوك العظماء فكان يجيئه النوم وكان الذباب يقع على وجهه فيوقظه ويؤذيه ثم أنه كان يلطم وجهه وخده عند طرد الذباب فقال في أثناء هذه الحالة للشافعي: ما الحكمة في خلق الذباب؟ فقال الشافعي ﷺ في الحال: ليذل به عظماء الملوك ويظهر عجزهم عن دفعه، وقيل: ناظر واحد من الناس مع الحشرات والهوام في القوة والقدرة فقالت نحلة في أثناء الكلام[3]: أليس إذا أخذ الآذي سلاحه وسيفه ورمحه بيده فجاء واحد منا يلسعه بإبرته ويشغله ذلك عن كل ما هو فيه ويثور جلده ويتألم أعضاؤه حتى لا

---

(1) تميته في الأصل: تنبته.
(2) أعظمهم في الأصل: أعظم.
(3) أليس: في الأصل: قال الدينوري أليس.

يمكنه أن يقبض على سيفه؟ وقالت ذبابة: أليس أن أعظمهم سلطاناً وأشدهم هيبة إذا قعد على سرير ملكه مع الهيبة والعظمة فإنه يجيء أحدنا من المطبخ أو من الخلاء ملوث اليدين والجناحين فيقعد على وجهه وثيابه ويلطخه ولا يقدرون على الاحتراز منا؟ وقالت الهوام والحشرات: إذا قعد أحد في مجلسه وسريره ويجيء أحدنا فيدخل في ثيابه فيفزعه ويزعجه وإذا أراد أن يبطش بنا يصفع نفسه بيده ويلطم خده بكفه؟ وكل ذلك دليل على عجز الإنسان وتمام البيان فيه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾ [الحج: 73]... إلى قوله ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ هذا هو الكلام في مراتب خلقة الإنسان عند وجوده، وقيل: هذه المراتب كلها العدم المحض كما قال تعالى لزكريا عليه السلام: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: 8]، وقال تعالى في أول سورة الإنسان: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: 1]، فهذه الحياة الدنياوية كانت معدومة من الأزل إلى الآن وستصير معدومة من الأزل إلى الأبد فانظر إلى طول مدة الأزل وطول مدة الأبد ثم انظر إلى هذه الحياة المحفوفة بهذين الطرفين حتى تعرف حقارة هذه الحياة وصغرها وقلتها بلى إن صرفها إلى الطاعات استوجب بها الثواب الأبدي [والسعادة السرمدية][1] فحينئذ يكون هذا الحقير عظيماً وهذا الصغير كبيراً وبالله التوفيق.

(1) السعادة السرمدية: في الأصل: سعادة السرمدي.

الفصل الخامس: في عجائب تكوين الأجنّة

اعلم أنه ﷻ خلق الخلق من أشياء مختلفة فخلق السماء من دخان، قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: 11]، وخلق الأرض من زبد البحر على ما نقل عنه صلوات الله عليه وسلامه أنه قال: «**خلق الله تعالى جوهرة لطيفة ونظر إليها بعين الهيبة فصارت ماء ثم سلط على الماء حرارة فارتفع منه زبد فخلق منه الأرض وخلق الجنة من رحمته والنار من غضبه**»، قال ﷻ: سبقت رحمتي غضبي. وخلق الملائكة من النور كما قال ﷺ: «**إن الله خلق الملائكة من النور وخلق الجنّ من النار**» قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾ [الرحمٰن: 15]، وقال: إبليس ـ نعوذ بالله منه ـ: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ﴾ [ص:76] وخلق آدم من التراب قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ وخلق حواء من بعض أعضاء آدم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء:1] وخلق عيسى من الريح، قال تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ وخلق أولاد آدم من النطفة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون:12-13] وخلق سائر الحيوانات من الماء، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ وخلق ناقة صالح من الصخرة فقال: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ [الأعراف: 73]، ثم كل هذه الأشياء مخلوقة من هذه المواد وهذه المواد يمتنع كونها مخلوقة من مواد أخرى وإلا لزم التسلسل، ويمتنع أن تكون هذه المواد قديمة لأنها محل الحوادث وكل ما كان محلاً للحوادث فهو حادث، فهذه المواد محدثة فهي مخلوقة لله تعالى والله خلقها على العدم المحض والنفي الصرّف فثبت أنه تعالى تارة يحدث الأشياء عن العدم المحض والسلب الصرف وتارة يحدث عن بعض الأشياء، ثم هاهنا يجب أن يتأمل الإنسان وهو أن كل قادر سوى الله فإنه لا يمكنه التصرف إلا في نوع واحد فالخياط يتصرف في الثياب والحداد يتصرف في الحديد، وأما الحق ﷻ فهو المتصرف في المعدومات والموجودات على وفق الحكمة ومطابقة المصلحة فمن

هاهنا يظهر كمال قدرة الله تعالى، ثم هاهنا دقيقة أخرى وهي أنه تعالى إذا خلق شيئاً من شيء جعل مرجعه إليه ألا ترى أن الملائكة لما كان أصلهم من النور فهم لما طعنوا في البشر حيث قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة:30] لكنهم ما بقوا مستمرين على ذلك الطعن بل رجعوا إلى مقتضى أصلهم وهو النورانية وعادوا إلى الصلح والاستغفار فقال تعالى حكاية عنهم: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾ [غافر: 7]، وعيسى ﷺ لما كان أصله نفخة جبريل صلوات الله عليه لا جرم عاد في الآخرة إلى عالم الأفلاك فقال تعالى: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ﴾ [آل عمران: 55]، وقال: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: 158]، وكذا البشر لما كان أصلهم من التراب لا جرم في الآخرة يرجعون إلى التراب ويصيرون تراباً كما قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه:55] وإذا علم العبد أن مصيره إلى التراب والفناء زالت محبة الدنيا عن قلبه وأعرض عنها وعلم أنه يجب عليه الاهتمام بعمارة الآخرة والإقبال على طاعة الله ﷻ:

وإذا عرفت هذه المقدمة فنقول: إن الله تعالى ذكر في القرآن كيفية الخلق فقال في سورة الحج: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦﴾ [الحج: 5 - 6]، وقال في سورة القيامة: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [القيامة: 37 -38 -39]، وقال في المرسلات: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝٢١ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢٢ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ [المرسلات: 20 - 23]، إلا أن أكثرهما شرفاً وتفضيلاً هو المذكور في أول سورة قد أفلح وهو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٤﴾ [المؤمنون: 12 - 14]، فاعلم أنه تعالى ذكر في هذه الآية سبع مراتب في تخليق الأجنة، وقبل هذه الآية افتتح السورة بذكر سبعة أنواع من الخصال الخيّرات والطاعات.

أولهما: الإيمان، وهو قوله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١﴾ والكلام في حقيقة الإيمان سيأتي في باب منفرد إن شاء الله تعالى.

ثانيها: الصلوات، وهي قوله تعالى: ﴿فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون:2] واختلفوا في الخشوع فمنهم من جعله من أفعال القلوب كالخوف والرهبة، ومنهم من جعله من أفعال الجوارح كالسكون وترك الالتفات ومنهم من قال: هو عبارة عن مجموع الأمرين وهو الأولى فالخاشع في صلاته لا بد أن يحصل له من قسم أفعال القلوب نهاية الخضوع والتذلل للمعبود ومن التذلل أن لا يكون مشتغل القلب بشيء سوى تعظيم خالقه، ومن قسم أفعال الجوارح أن يكون ساكناً مطرقاً ينظر إلى موضع سجوده ومن الترك أن لا يلتفت يميناً وشمالاً فالخشوع عبارة عن مجموع هذه الأشياء إلا أن الخشوع يُرى على الإنسان ليس إلا ما يتعلق بالجوارح فإن الذي يتعلق بالقلب لا يرى وتمام هذا الكلام في هذا المعنى سيأتي إن شاء الله تعالى في كتاب الصلاة.

وثالثاً: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾ [المؤمنون:3] وفي اللغو أقوال:

الأول: أن يدخل فيه كل ما كان حراماً أو مكروهاً أو مباحاً ولكن لا يكون للإنسان ضرورة ولا حاجة إليه.

الثاني: أنه عبارة عن كل ما كان حراماً وهذا التفسير أخص من الأول.

الثالث: أنه عبارة عن المعصية في القول وهذا أخص من الثاني.

الرابع: أنه المباح الذي لا حاجة إليه واحتج هذا القائل بقوله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ [البقرة: 225]، فكيف يحمل اللغو على المعاصي مع أن المؤاخذة فيها غير حاصلة، واحتج الأولون بأن اللغو إنما سمي لغواً لأنه يلغى، فكأنه ما يقتضي الدين إلغاءه كان يسمى باللغو ثم اللغو قد يكون كفراً كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ [فصلت: 26]، وقد يكون كذباً لقوله تعالى: ﴿لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ﴾ [الغاشية: 11]، وقوله تعالى: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا﴾ [الواقعة: 25].

إذا عرفت اللغو فنقول: أنه ﷺ مدحهم بأنهم مُعرِضون عن اللّغو والإعراض

هو بأن لا يفعله ولا يرضى به ولا يخالط من يقدم عليه قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: 72]، واعلم أنه ﷻ وصفهم بالخشوع في الصلاة وأتبعه بوصفهم بالإعراض عن اللغو حتى يحصل لهم الفعل والترك فالفعل هو الصلاة والترك هو الإعراض عن اللغو.

ورابعها: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾﴾ والقول في تفسير اسم الزكاة وفي منافعه سيأتي في باب الزكاة.

وخامسها: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾﴾ والكلام فيه سيأتي إن شاء الله تعالى في باب النكاح.

وسادسها: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون: 8].

اعلم أنه يسمى الشيء المؤتمن عليه والمعاهد عليه أمانة وعهداً، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: 58]، وقال تعالى: ﴿وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: 27]، وإنما تؤدي الأمانة الأجسام لا المعاني وإنما تقع الخيانة في المؤتمن عليه لا في نفس الأمانة والعهد ما عقده الإنسان على نفسه فيما يقرّبه إلى ربه وتقع أيضاً هذه اللفظة على ما أمر الله به كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا﴾ [آل عمران: 183]، والراعي هو القائم على الشيء بالحفظ والإصلاح كراعي الغنم وراعي الرعية واعلم أن الأمانة والخيانة متقابلان قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾ فكل ما خرج عن أحدهما دخل في الآخر وكل العبادات دخل في الأمانة بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأحزاب: 72]، وتمام الكشف فيه أن العبادات قد تكون مخفية كالصوم وغسل الجنابة واستيفاء الوضوء وغسل الثياب، وقد تكون بحيث يخفى كيفية الإتيان بها قال ﷺ: «**أعظم الناس خيانة من لم يتم صلاته**»(1) وجملة ذلك ما يلتزمه الإنسان بفعل أو قول فيلزمه الوفاء به كالودائع والعقود وما يتصل بها، ومن ذلك الأقوال التي يحرم بها النساء ويحرم بها التصرف في العبد لأنه مؤتمن في كل ذلك وأما العهد فإنه يدخل فيه العقود والأيمان والنذور فبيّن الله ﷻ أن مراعاة هذه الأمور والقيام بها معتبرة في

(1) لم نره بهذا اللفظ فيما لدينا من المراجع.

حصول الفلاح.

وسابعها: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩﴾ واعلم أنه فرق بين الخشوع والمحافظة، فإن الخشوع صفة القلب على ما ذكرنا والمحافظة عبارة عن تحصيل شروطها في رعاية الوقت والطهارة والتشمّر لأدائها وترك التواني فيها فهذه أمور سبعة قدّم الله ﷻ ذكرها ثم قال بعدها: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: 10 - 11]، وها هنا سؤالان:

السؤال الأول: لم سمى الجنة بالميراث مع أنه ﷻ حكم بأن الجنة حقهم في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: 111].

والجواب من وجوه:

الأول: أنه روي عن الرسول ﷺ أنه قال: **«لا مكلف إلا وقد أعد الله له في النار ما يستحقه إن عصى وفي الجنة ما يستحقه إن أطاع»**(1) وجعل لذلك علامة فإذا آمن البعض ولم يؤمن البعض صارت منازل من لم يؤمن منقولة إلى الذين آمنوا فلما كان حرمانهم عن تلك الدرجات ودخولهم في النار شبيهاً بالموت سمي ذلك ميراثاً لهذا الوجه وقد قال الفقهاء: إنه كما يورث عن الميت ما كان مملوكاً له كذلك يورث عنه ما كان يقدر فيه أنه كان مملوكاً له إن فعل وإن لم يدخل في ملكه، كالدية فإنها موروثة مع أنها لم تدخل في ملك المقتول ألبتة.

الثاني: أنه لما حصلت الجنة لهم مع أنهم ما كانوا عارفين في الدنيا بكمية منافعها أشبه ذلك الانتقال إلى الوارث.

الثالث: إن الجنة مسكن أبينا آدم فإذا انتقلت إلى أولاده كان ذلك شبيهاً بالميراث.

السؤال الثاني: كيف حكم على المؤمنين [المتصفين](2) بالصفات السبع بالفلاح مع أنه تعالى ما تممّ ذكر الواجبات كالصوم والحج؟

---

(1) لم نره فيما لدينا من المراجع.

(2) المتصفين: زيادة يقتضيها السياق.

الجواب: أن قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ يأتي على كل الواجبات من الأفعال والتروك.

السؤال الثالث: هذه الآية تدل على أن هؤلاء هم الوارثون فأما من لم يأت بالطاعات وأتى بالمعصية ثم تاب ومات عقب التوبة من غير فعل شيء من الطاعات وجب أن لا يدخل الجنة وهو خلاف الآيات الدالة على أن التائب من أهل الجنة.

الجواب: ـ والله أعلم ـ: إن ظاهر الآية وإن كان يفيد الحصر إلا أنه يجب حمل الظاهر على أن الكاملين من أهل الجنة هم الموصوفون بهذه الصفات بدليل أن المجانين والصبيان يدخلونها وكذا الفساق من أهل الصلاة لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ ونظير حمل هذا الحصر على حالة الكمال قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: 2]، ومن الناس من قال: الفردوس عبارة عن أشرف موضع في الجنة وعلى هذا التقدير يزول السؤال، قال ﷺ: «**الفردوس مقصورة الرحمٰن**»[1] وعن أبي أمامة عن النبي ﷺ أنه قال: «**سلوا الله الفردوس فإنها سرة الجنة**»[2] واعلم أنه ﷻ لما شرح في أول السورة هذه المراتب السبعة في العبادات أردفها بما يدل على وجود الصانع وقدرته وعلمه وحكمته وهو ذكر المراتب السبع في خلق الإنسان أولها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ وثانيها قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾ وثالثها قوله: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ ورابعها قوله: ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ وخامسها قوله: ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا﴾ وسادسها [قوله][3] ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾ وسابعها قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ [المؤمنون: 14].

فلنشرح أحوال هذه المراتب السبعة بعون الله وفضله:

أما المرتبة الأولى: وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ ففيه سؤال مشكل وهو أن المراد من الإنسان إن كان هو آدم عليه السلام فكيف يستقيم قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ فإن آدم عليه السلام ما كان كذلك وإن كان أولاد آدم فكيف

---

(1) لم نره في المراجع التي بحوزتنا.

(2) رواه الطبراني في الكبير (7966)، والحاكم في المستدرك: 2/ 37 من حديث أبي أمامة الباهلي.

(3) [قوله]: زيادة يقتضيها السياق.

يستقيم قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ فإنهم ليسوا مخلوقين من الطين؟

والجواب ـ والله أعلم ـ من وجوه:

الأول: أن لفظ الإنسان شامل لآدم عليه السلام وأولاده ثم قوله: ﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾ منصرف إلى آدم وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ منصرف إلى أولاده.

الثاني: أن المراد من الإنسان في هذه الآية أولاد آدم والطين هاهنا اسم آدم والسلالة هي الأجزاء الطينية المبثوثة في أعضائه وهي التي لما اجتمعت وحصلت في أوعية المني صارت منيًا وهذا التفسير مطابق لقوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: 7-8].

الثالث: هو الذي ذكرت فقلت: المراد من الإنسان هاهنا أولاد آدم [وذلك][1] لأن المقصود من ذكر هذه الآية التنبيه على ما يدل على وجود الصانع، وهذا لا يحصل إلا بالأمر المشاهد وهو تولد أولاد آدم لا تولد ذات آدم فثبت أن المراد من الإنسان أولاد آدم، بقي أن يقال: فما المراد من قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ مع أن أولاد آدم عليه السلام ليسوا كذلك؟

وجوابه: أن الإنسان إنما يتولد من النطفة وهي إنما تتولد من الأغذية والأغذية إما حيوانية وإما نباتية والحيوانية تنتهي إلى النباتية والنبات إنما يتولد من صفو الطين، والإنسان بالحقيقة إنما يكون متولداً من سلالة من طين أقصى ما في الباب أن تلك السلالة من الطين تواردت عليه أطواراً بخلقه كما أنه يولد من المني بعد تعاقب الأطوار والأدوار عليه ولم يكن ذلك قادحاً في كونه متولداً من المني وهذا التأويل الذي ذكرته مطابق باللفظ ولا يحتاج معه إلى شيء من التكلفات والله أعلم بمراده.

المرتبة الثانية: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ واعلم أن الأطباء يقولون: أن الإنسان إذا أكل طعاماً فإنه ينطبخ ذلك الطعام في معدته لا بحرارة المعدة وحدها بل بحرارة ما [يحيط][2] بها: أما من اليمين فمن الكبد، وأما من الشمال

---

(1) وذلك، في الأصل: وكذلك.

(2) يحيط، في الأصل: يطيف.

obeikandl.com

فبالطحال، وأما من قدام فبالثوب الشحمي القابل للحرارة سريعًا، وأما من فوق فالقلب يتوسط تسخينه للحجاب، فما يكون منه صافياً يدخل في عروق صلاب دقاق في الكبد والذي كالثقل ينزل في الأمعاء ثم ينطبخ ذلك المصفى مرة أخرى في الكبد ويحصل عند ذلك الانطباخ رغوة وهي الصفراء وتذهب إلى المرارة. وترسب وهو السوداء، ويذهب إلى الطحال وينفصل المائية الفضلية وتذهب إلى الكليتين ومنها إلى المثانة ومنها إلى الإحليل وتخرج. ثم إنه تعالى خلق مجرى بين الطحال وبين فم المعدة ومجرى آخر بين المرارة والأمعاء ثم إن تلك السوداء ينصبّ شيء منها على فم المعدة فتحصل في المعدة دغدغة الجوع ولو انسدَّ هذا المجرى لم يحصل للإنسان شعور بالحاجة إلى الطعام. وينصب شيء من تلك الصفراء على الأمعاء فتحصل في الأمعاء داعية إخراج الفضلة فلو انسد ذلك المجرى لم تنصب تلك الصفراء على الأمعاء ولم يحصل للإنسان شعور بالحاجة إلى إخراج الثقل فيبقى الثقل فيها ويتولد القولنج ثم إنه يحصل بين هذين الطبخين طبخ ثالث وهو أن ذلك الدم الصافي يخرج من الكبد ويتوزع في العروق وينطبخ مرة ثالثة في العروق، ثم يحصل طبخ رابع وهو أن تلك الدماء المتوزعة في العروق تنصب على جواهر الأعضاء وتتكيف بكيفية طبائع تلك الأعضاء فبعضها يصير متكيفاً بكيفية العظم وبعضها بكيفية اللحم وبعضها بكيفية العصب. فهذه أربع مراتب في الطبخ، إذا عرفت هذا فنقول: أنه إذا صارت الشهوة مستولية على الإنسان تولدت من تلك الشهوة سخونة منتشرة في جميع الأخلاط والأعضاء بسبب تلك السخونة قد بقي بخار لطيف ورغوة من جميع الأعضاء والأخلاط إنما يرتفع فما حصل عند الهضم الرابع فيتولد من الهضم جوهر سببه بالطبع في العظم ومن اللحم والعروق والأعصاب كذلك، ثم إنه كما حصل في تلك الرغوة قوى وطبائع مشابهة لتلك الأعضاء البسيطة فكذلك يحصل فيها قوى وطبائع مشابهة لقوى الأعضاء المركبة فيحصل فيها أجزاء من الدماغ وأجزاء من العين وأجزاء من اليد وأجزاء من الرجل، ولهذا المعنى لما سأل اليهود رسول الله ﷺ عن سبب مشابهة الولد تارة أباه وأخرى أمه فقال: «**إن كان الغالب هو ماء الرجل حصلت المشابهة بالأب وإن كان الغالب هو ماء المرأة حصلت المشابهة للأم**»[1]، ثم إن هذه الرغوة المختلسة من جميع الأعضاء والأبعاض تصعد في العرقين السياسين بأمر الحكيم الخبير إلى الدماغ وذلك لأن الدماغ أشرف الأعضاء للإنسان وهو مسكن القوة المذكرة

(1) هو عند البخاري: (3938) ومسلم (311) من حديث أنس وعند مسلم (314) من حديث عائشة بمعناه.

الحافظة فاقتضت الحكمة الإلٰهية أن يحصل من خواص الدماغ الذي هو أشرف أعضاء بدن الإنسان في تلك الرغوة أثر وكيفية، ثم إنه تعالى خلط بتلك الأجزاء أشياء كثيرة من أجزاء الدماغ ولذلك فإن من باشر كثيراً ظهر أثره على العينين في الفتور والكلال والانكساء، ثم إنه ﷻ ينزل تلك الأجزاء من الدماغ إلى صلب الرجل وترائب المرأة ثم عند الوقاع ينزل من الصلب والترائب إلى مستقر الرحم فهذا هو المراد من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾.

واعلم أنّا قد ذكرنا أن هذه النطفة تجري مجرى رغوة تنتقل من الأعضاء بسبب ذوبان يعترض لها عند استيلاء حرارة الشهوة فيكون بعض تلك الأجزاء من ذوبان العظم وبعضها من ذوبان اللحم وبعضها من ذوبان العصب وبعضها من ذوبان العروق، ولما كان البدن الإنساني مخلوقاً من الطبائع الأربعة كان ذوبانها أيضاً كذلك فيكون المني جسماً مركباً من أرضية ومائية وهوائية ونارية، فالهوائية والنارية عالية عليها الحرارة ويدل عليه أن بياض الرطوبة إنما يكون بسبب اختلاط الهوائية بها كما يكون في الزبد والأجزاء الكثيفة التي في المني هو مواد الأعضاء والأجزاء اللطيفة هو أن فيه مواد الأرواح وتلك الأجزاء اللطيفة والكثيفة مختلط بعضها إلى بعض، ولما كان اللطيف سريع التخلل والتلاشي اقتضت الرحمة الإلٰهية جعل الأجزاء اللطيفة في الوسط وجعل الأجزاء الكثيفة كالصوان لها فيصير الكل كالكرة المستديرة فيكون باطنها مملوًا من الأجزاء الروحانية اللطيفة وظاهرها من الأجسام الكثيفة، وذلك الموضع الذي هو مجمع الأجزاء اللطيفة هو الموضع الذي استحكم وكمل كان قلباً فلهذا المعنى قال العلماء: أول الأعضاء الإنسانية تكونًا هو القلب وآخرها موتاً هو القلب. وعند هذا يظهر أن قطرة النطفة تصير كالكرة ويكون مجمع الأرواح في باطن تلك الكرة هو القلب وحينئذ يحصل هاهنا أحوال عجيبة:

الأول: أن العالم الأصغر الذي هو الإنسان كرة كما أن العالم الأكبر أيضاً كرة.

الثاني: أن كرة العالم الأصغر يبقى معلقة في جوّ الرحم يحفظه الخالق العظيم كما أن كرة العالم الأكبر يبقى معلقة في الخلاء الذي لا نهاية له يحفظه الخالق الحكيم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ﴾.

الثالث: أن كرة العالم الأصغر الكثيف محيط وهو اللحم والبشرة والمحاط به اللطيف وهو السمٰوات والمحاط به الكثيف وهو الأرض(1).

الرابع: أنه تعالى قال في خلق السمٰوات والأرض: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ وأما في العالم الأصغر فقال أهل التجارب: أن هذه الكرة المتولدة من هذه النطفة تبقى ستة أيام على حالتها الأولى لا تتغير منها صفة ولا تزول منها حالة.

الخامس: روي أنه تعالى لما أراد خلق آدم ﷺ أمر الملائكة عليهم السلام أن يأخذوا من كل ناحية من نواحي الأرض قبضة فبعض تلك القبضة أحمر وبعضها أسود وبعضها أبيض، وبعضها حرة وبعضها سبخة وبعضها عذبة وبعضها مرة فلا جرم جاء أولاد آدم ﷺ على صفات مختلفة بعضهم أحمر وبعضهم أسود وبعضهم حر كريم وبعضهم نذل سفيه، فكذا هاهنا لما أراد الله تعالى تخليق ولد آدم أمر الملائكة عليهم السلام الموكلين بأبدان البشر حتى أخذوا من كل طرفٍ من أطراف أبدان الأب والأم جزء على خاصية أخرى: فأخذوا من سواد الحدقة والشعر جزء أسود، ومن بياض الملتحمة والسن والجلد جزء أبيض ومن الدم جزء أحمر، ومن الدماغ الأجزاء الباردة ومن القلب الأجزاء الحارة، ومن الكبد الأجزاء الرطبة ومن العظام الأجزاء اليابسة، وبالجملة أخذوا من طرف من أبدان الأبوين جزءًا مناسباً له في الطبيعة مشاكلة له في الخاصية. ثم إنه ﷻ كما أخبر عن طينة آدم أنه خمرها بيده أربعين صباحاً فكذا هاهنا خمر هذه الأعضاء بعضها ببعض أربعين صباحاً، وكما أنه ﷻ بحكمته رعى في تخمير طينة آدم ﷺ دقائق لا تصل إليها العقول والأفكار فكذا في تخمير هذه الأجزاء بعضها ببعض راعى أسراراً لا تطلع عليها أفهام الخلق، فيقدر لكل شخص من ذلك التخمّر نسبة خاصة في المقدار والكيفية ومناسبة قدره في الحسن والقبح والسعادة والشقاوة والغنى والفقر والعلم والجهل لا يعرفها أحد إلا هو ولا يقف على كنه أسرارها أحد إلا هو جلّ وعز له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين، واعلم أنه تعالى ذكر في آيات كثيرة تولد الإنسان عن النطفة فقال في أول سورة النحل: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٤﴾ [النحل: 4]، وقال في آخر يٓس: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يسٓ: 77]، وقال في الواقعة: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ

(1) لا يخفى ما في هذه الفقرة ـ الثالث ـ من ركاكة ويبدو أن بها سقطًا.

﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الواقعة: 58 - 59]، وقال في الإنسان: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الدهر: 2]، وقال في عبس: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾ [عبس: 17 - 22].

وأمثال هذه الآيات كثيرة، واعلم أنه تعالى ذكر في القرآن للمني صفات كثيرة منها قوله تعالى في سورة الطارق: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾﴾ [الطارق: 5 - 7]. **وهذه الآية مشتملة على ذكر الصفتين:**

الصفة الأولى: كونه ماءً دافقاً ولنذكر تفسير الدافق بحسب اللغة وما يتعلق بكونه دافقاً من وجه المصلحة، أما اللغة فاعلم:

أن الدفق صب الماء يقال: دفقت الماء أي: صببته وهو مدفوق أي: مصبوب، ولما كان هذا الماء مدفوقاً فاختلفوا في أنه لِم وصف بأنه دافق؟ وذكروا فيه وجوهاً:

الأول: قال الزجاج: معناه ذو اندفاق كما يقال: دارع وفارس ونابل وتامر أي: أي ذو درع وفرس ونبل وتمر.

الثاني: قال الفراء: أنهم يسمون المفعول باسم الفاعل كقولهم: شر كاتم وهم ناصب وليل نائم، قال تعالى: ﴿فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي: مرضية.

الثالث: قال الخليل في كتاب العين: دفق الماء دفقاً ودفوقاً إذا انصب بمرة.

الرابع: أن الدافق صاحب الماء فأطلق هذا الوصف على الماء على سبيل المجاز.

وأما وجه الحكمة في كون الماء مندفقاً فاعلم أن وجه الحكمة فيه التنبيه على أنه ليس المقصود من المباشرة تحصيل اللذة بل تحصيل الولد وذلك لأن كون الماء مندفقاً يمنع من دوام اللذة، وذلك لأن السيلان المستمر أقوى في إيجاد اللذة وأكثر دواماً لها بل الحكمة في الدفق بالقوة أن يكون للمني قوة في الوصول إلى قعر الرحم الذي سماه الله تعالى قراراً مكيناً.

الصفة الثانية: كون المني خارجاً من بين الصلب والترائب، وترائب المرأة عظام صدرها حيث تكون القلادة وكل واحدة من تلك العظام فهي تريبة وقد اختلف

المفسرون فمنهم من قال: إنه مخلوق من الماء الذي يخرج من صلب الرجل وترائبه، ومنهم من قال: أنه مخلوق من الماء الذي يخرج من صلب الرجل وترائب المرأة، واحتج الأولون بأنه تعالى بيَّن أن الإنسان مخلوق من ماء دافق والذي يوصف بهذا الوصف هو ماء الرجل ثم عطف عليه بأن وصفه بأنه يخرج من بين الصلب والترائب وذلك يقتضي كون هذه الصفة صفة لماء الرجل وإذا كان كذلك ثبت أن الولد مخلوق من ماء الرجل وحده.

واحتج أصحاب القول الثاني بقوله ﷺ: **«إذا غلب ماء الرجل يكون الولد ذكراً ويعود شبهه إلى الأب وإلى أقاربه وإذا غلب ماء المرأة فبالضد»** وهذا صريح في أن الولد مخلوق من ماء الرجل وماء المرأة والله أعلم بحقائق مخلوقاته.

الصفة الثالثة: قوله تعالى في سورة النجم: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ [النجم: 45 - 46]، وقال في سورة القيامة: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [القيامة: 37 - 38]، ولقائل أن يقول: ما الفائدة في قوله: من مني يمنى مع إن كل مني يمنى؟

والجواب ـ والله أعلم ـ: إن فيه تنبيهاً على حقارة حال المني والتقدير أنه مخلوق من المني الذي جرى على مخرج النجاسة فلا يليق بمثل هذا الشيء أن يتمرد على طاعة الله تعالى إلا أنه ﷻ عبّر عن هذا المقصود على سبيل الرمز والكناية، نظيره قوله تعالى في عيسى ابن مريم وأمه: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: 78]، والمراد بذلك قضاء الحاجة التي يحتاج الإنسان إلى خروجها منه، إلا أنه تعالى عبر عن هذا المعنى بقوله: (كانا يأكلان الطعام) وكان الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: كيف يليق التكبر والتبختر ممن مرّ على مجرى البول مرتين؟

الصفة الرابعة: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ وأيضاً قال تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ والمراد بكونه مهينًا وجوه ثلاثة:

الأول: قال مالك: أنه نجس رطبًا ويابساً، وقال الشافعي: أنه طاهر رطبًا ويابساً، وقال أبو حنيفة: أنه نجس رطبًا طاهر يابساً. حجة الشافعي ﷺ من وجهين: الحجة الأولى أنه تعالى منّ بخلقنا منها قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ

﴿١٣﴾ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ ولو كان نجساً لما حسن هذا الامتنان فإن ألزمونا العلقة والمضغة فنجيب عنه من وجهين:

الأول: أنا لا ندري ما حالها حينما تكون في الرحم.

الثاني: أن المني إنما يصير علقة ومضغة بسبب أنه يمتزج به دم الطمث والدم نجس فلهذا العارض حكمنا بالنجاسة، إلا أن أصل الامتنان بالتخليق منه يقتضي كونه طاهراً.

الحجة الثانية: أنه تعالى منّ علينا بأن جعل اللبن طاهراً لأجل أنه غذاء ومن المعلوم أن الحاجة إلى طهارة الذات أعظم من الحاجة إلى طهارة الغذاء، فلما منّ علينا بجعل اللبن الذي هو الغذاء طاهراً فبأن يمنّ عينا بطهارة المني الذي هو الأصل أولى. واعلم أنا وإن حكمنا بطهارته إلا أن العلماء لما اختلفوا في طهارته ونجاسته كان دليلاً على غاية حقارته ونهاية مهانته.

الثاني: إن مهانته لأجل كونه مستقذراً.

الثالث: مهانته لأجل مروره على ممر النجاسة.

الصفة الخامسة: أنه تعالى أخبر عن الرحم الذي هو موضعه (قرار مكين) وهو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾. **وفيه فوائد:**

الفائدة الأولى: إن من ملأ كوزًا من الماء ثم قلبه انصب ذلك الماء ثم إنه أودع النطفة في قعر الرحم ثم خلق الرحم منكساً ثم حفظ فيه تلك النطفة بقدرته وحكمته وهذا وإن كان عجيباً بالنظر إلى قدرتنا إلا أنه غير عجيب بالنظر إلى قدرته، وذلك أن أجرام السمٰوات والأرضين والجبال والبحار أثقل بكثير من تلك القطرة كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [المؤمن: 57]، فالذي أمسك السماء والأرض بقدرته من غير علاقة فوقها ولا دعامة تحتها كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر: 41]، فبأن يقدر على إمساك النطفة في قعر الرحم بقدرته كان أولى وأحرى.

الفائدة الثانية: أنه تعالى سمى الرحم قراراً مكيناً ومعلوم أن النطفة في الرحم ليست مستقرة بل بقيت معلقة في الهواء فكيف يجوز تسمية الرحم بالقرار المكين؟ وجوابه كأنه قيل: أنا أمسك النطفة في هواء الرحم بقدرتي كما يمسك الواحد منكم

الشيء الثقيل في مستقر الأرض، والمراد منه إظهار كمال القدرة ونظيره أنه تعالى سمى تخليق السماء بناء فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [البقرة:22] والشيء المعلق في الهواء لا يسمى بناء إنما الشيء المستقر على القرار هو الذي يسمى بناء. إلا أن الجواب عنه كأنه قيل:

أني لما أمسكت بقدرتي السماء في جو الهواء كان ذلك السكون جارياً مجرى الذي يكون مستقراً على الأرض ويبنى عليه البناء، والمقصود منه التنبيه على كمال قدرة الصانع ﷻ فكذا ها هنا سمى الرحم بالقرار المكين لتقرير هذا المعنى.

الفائدة الثالثة: وهو أن استقرار النطفة في الرحم إنما كان بسبب أنه ﷻ بقدرته وحكمته يحفظها، فلما كان المستقر هو القدرة الأزلية ولا شك أن القدرة الأزلية مبراة عن الخلل والعجز والزلل والنقصان لا جرم سمى السماء بناء والرحم قراراً، ونظيره قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: 2]، يعني لها عمد غير مرئية وهي قدرة الله جل وعز وحفظه وحكمته والله أعلم.

الصفة السادسة: النطفة قوله تعالى في سورة الإنسان: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان:2].

المشج في اللغة: الخلط، والأمشاج الأخلاط. قال صاحب الكشاف: الأمشاج لفظ مفرد وليس بجمع بدليل أنه وقع صفة للمفرد وهي قوله: نطفة أمشاج ويقال أيضاً: نطفة مشج ولا يصح أن يكون أمشاج جمعاً للمشج بل هما مثلان في الإفراد نظيره برمة إعسار أي: قطع منكسرة وثوب أخلاق وأرض سباسب، واختلفوا في معنى كون النطفة مختلطة على وجوه:

الأول: أنه اختلاط نطفة الرجل بماء المرأة قال ابن عباس: ماء الرجل أبيض غليظ وماء المرأة أصفر رقيق فيختلطان ويخلق الولد منهما، فما كان من عصب وعروق وعظم فمن نطفة الرجل وما كان من لحم ودم فمن ماء المرأة، وقال الحسن: من نطفة مشجت بالدم وهو دم الحيض فإن المرأة إذا حصل ماء الرجل في رحمها وصلبها أمسك حيضها فاختلطت النطفة بالدم، وقال قتادة: الأمشاج هو أن يختلط الماء والدم أولاً ثم يصير علقة ومضغة وبالجملة فهو عبارة عن انتقال ذلك الجسم من صفة إلى صفة وحال إلى حال. وقال آخرون: الأمشاج عبارة عن كون النطفة مختلطة

من الأمهات الأربع والتقدير من نطفة ذات أمشاج وهذا دل على قدرة الله تعالى لأن الطبائع المتنافرة لا تجتمع إلا بقهر قاهر قادر، ثم إن كل واحد من تلك الطبائع منافية للحياة فبناء أمر الحياة عليها يكون إظهاراً للضد من الضد فتكون أدلّ على كمال القدرة ونظيره قوله تعالى في سورة يسّ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ ويحتمل أيضاً أن يكون المراد ما ذكرنا من كون النطفة متولدة بعد الهضم من الأربع، فبعضها فيه خاصية العظم وبعضها فيه خاصية اللحم وخاصية العرق وتلك الأجزاء مختلطة بعضها ببعض فيكون أمشاجاً بهذا التأويل.

المرتبة الثالثة: من مراتب خلق الإنسان صيرورته علقة، وزعم أصحاب التجارب أن المني في أول الأمر يصير كرة مستديرة ويبقى على كونه الأبيض في الرحم ستة أيام كما شرحناه ثم إنه يظهر بعد ذلك في الباطن أعلى مركز هذه الكرة مركز دموي وذلك الموضوع هو الذي ذكرنا أنه مجمع الأرواح وهو الذي إذا تمت خلقته كان قلباً فلهذا المعنى قالوا: إن أول عضو يتكون من البدن هو القلب، ثم يحصل بعد ذلك أيضاً نقطتان دمويتان إحداهما فوق، النقطة الأولى: وهي التي إذا استكملت خلقته كان دماغاً. النقطة الثانية: تحصل عن يمين النقطة الأولى وهي التي إذا استكملت خلقتها كانت كبداً، ثم إن هذه النقط الثلاثة تمتد في الصفات امتداداً وهذه الأحوال تحصل بعد ثلاثة أيام ثم بعد ستة أيام أخرى فتكون تسعة أيام من الابتداء، وقد يتقدم يوماً ويتأخر يوماً ثم بعد ستة أيام أخرى وهو الخامس عشر من العلوق بعد الدموية في الجميع فيصير علقة وربما تقدم يوماً أو يومين أو تأخر يوماً أو يومين فهذا شرح حال العلقة، ثم إن هاهنا أسراراً وفوائد:

الحكمة الأولى: أن من نقش نقشاً على شيء فإنه يحتاج إلى أمور:

الأول: أن يكون محل النقش جسماً صلباً كثيفاً وهاهنا الحق ﷻ وضع نقشه على الماء المهين.

الثاني: يجب أن يكون المكان الذي ينقش فيه واسعاً.

الثالث: أن يكون الموضع مضيئاً وهاهنا الحق ﷻ ينقش هذا النقش العجيب في الرحم وهو موضع ضيق فقال جلّ وعز: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ واستدل بهذا على إلٰهيته ووحدانيته فقال تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ

ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: 18] وأيضاً نقش هذا النقش في ظلمات الأرحام فقال في سورة الـزمـر: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: 6] فما أعظم درجة الإنسان وما أعجب خلقته وذلك لأنه لما ذكر حالاً من أحوال تخليقه ذكر عقيبه إما التهليل كما في الآيتين، وإما التعظيم والتقديس كما في قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: 14].

الحكمة الثانية: إن كل نقاش وكاتب أراد أن يكتب شيئاً على جسم فإنه يكتب ذلك النقش على ظاهر ذلك الجسم ثم إنه يصل الأثر من الظاهر إلى الباطن، وهاهنا الحق ﷻ أظهر آثار كتابته ونقشه وتصويره في الباطن وهو ظهور النقط الثلاث الدموية في الباطن أولاً ثم سريانها من الباطن إلى الظاهر، وهذا ليعلم أنه كما أن ذاته وصفاته لا تشبه الذوات والصفات فكذلك أفعاله لا تشبه أفعال سائر الفاعلين وإن اشتبه عليك هذا في مبدأ الخلقة والفطرة فله مثال حاضر في الحال وذلك لأن الأعضاء الظاهرة لا تتحرك ولا تسكن إلا إذا حدثت في القلب داعية وإرادة لذلك الفعل، ومبعث ذلك الدواعي والإرادات في القلوب هو الله ﷻ وهو المراد بقوله تعالى: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة: 22] وبقوله ﵇: «**قلوب العباد بيد الله**»، وبقوله ﷺ: «**قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمٰن**» فالحق ﷻ يكتب في القلب تلك الدواعي والإرادات ثم يتولد منها فنون الأفعال والحركات في ظاهر البدن، فظهر أن تأثير قدرة الله يظهر الآن في القلوب والضمائر أولاً ثم تسري تلك التأثيرات من البواطن والضمائر إلى الظواهر. ولما عرفت هذا المعنى في الحال فاعرف مثله في تخليق البدن في الابتداء.

الحكمة الثالثة: إن كل نقاش أبدع نقشاً حسناً لطيفاً فإنه يبالغ [في](1) صون نقشه عن أربعة أشياء: عن التراب فإن الغبار يبطل رونق النقش ويزيل طراوته، وعن الماء فإنه يغسله ويزيله، وعن الرياح فإنها تكدر النفوس ويبطلها، وعن النار فإنها تحرق وتفنى ثم أنه ﷻ عكس هذه القضية فأظهر نقش خلقة البشر من التراب فقال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: 59] وأظهر نقش خلقة الدواب في الماء فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ وأظهر خلقة عيسى ﵇ من الهواء فقال تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: 91]، وأيضاً جعل

(1) [في] الزيادة على الأصل.

النفخة سبباً لتخليق الحيوانات فقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى﴾ [المائدة: 110]، وخلق الجان من النار فقال جل وعز: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: 27]، وذلك يدل على أن ما يفعله لا يشبه فعل أحد من الفاعلين.

الحكمة الرابعة: أنه ﷻ خلق القلب أولاً وذلك لأنه سرير الأرواح ومدرسة المعرفة وخانقات الصفوة ومنزل المحبة والنور الفائض من خطاب ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: 19] لا يتجلى إلا فيه والكرامة الحاصلة من تشريف ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: 54] لا تظهر إلا فيه والاستقرار المتولد من وعد ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28] لا يحصل إلا فيه فلما كان هو المقصود في الثواب والعقاب والوعد والوعيد والترغيب والترهيب والتحذير، لا جرم كان هو المخلوق الأول ثم إنه خلق الدماغ فوقه والكبد تحته لأن الدماغ منشأ الفكر الذي هو الواسطة بين القلب وبين العالم العلوي والكبد منشأ الغذاء وهي الواسطة بين القلب وبين العالم السفلي فجعل العلوي في العلو والسفلي في السفل تنبيهاً على هذه الدرجات.

الحكمة الخامسة: أن القلب سلطان البدن وليست سلطنته بسبب كبر الجثة وإلا لوجب أن يكون الفخذ أولى بهذه السلطنة، ولا بسبب الحدة وإلا لكانت المرارة أولى بها، ولا بسبب القوة وإلا لكانت العظام أولى بها، ولا بسبب كثرة الذخيرة وإلا لكانت المعدة أولى بها ولما تطلب جميع هذه الوجوه ولم تبق للقلب خاصية سوى كونه معدناً للعلم والحكمة والفهم والإدراك علمنا أنه إنما كان سلطان البدن لكونه موصوفاً بالعلم والحكمة وكانت سلطته بالعلم والحكمة والفهم والإدراك فعلمنا أنه من كان عالماً حكيماً كان سلطاناً بالحق ونائباً للحق بالخلق، وكل من كان محروماً عن العلم والحكمة كانت سلطنته في التلبيس بمثابة إبليس.

الحكمة السادسة: أن الروح سلطان الجسد، وسرير الروح هو القلب، لا جرم كان القلب هو أول الأعضاء الحادثة في البدن، فنقول: لما كان الروح سلطاناً محتاجاً إلى سرير جسماني كان ذلك السرير أولى الأعضاء المكونة في البدن، فالحق ﷻ سلطان الموجودات فلو كان محتاجاً إلى سرير جسماني وهو العرش[1] أول المحدثات وأول المكونات لكنه ليس الأمر كذلك بنص القرآن والخبر أما نص القرآن فهو قوله

(1) لوجب على هذا القياس أن يكون العرش.

تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: 54]، فبين تعالى أن الاستواء على العرش متأخر عن تخليق السمٰوات والأرض، وأما الخبر فإنه روي: أنه عليه أفضل السلام قال: «**أول ما خلق الله القلم**» وفي رواية ثانية: «**أول ما خلق الله العقل**» وفي رواية ثالثة: «**أول ما خلق الله نوري**» وفي رواية رابعة: «**أول ما خلق الله جوهرة ثم نظر إليها بعين الهيبة فصارت ماء**»[1] وجميع هذه الروايات متطابقة على أن العرش ليس هو المخلوق أولاً وذلك يدل على كونه منزهاً عن العرش والكرسي والمكان والجهة.

الحكمة السابعة: أن القلب سلطان الجسد فكان أشرف أعضاء الجسد هو القلب، ثم إن المجسمة يقولون: كل موجود هو أشرف من غيره فوجب أن يكون أعلى من غيره فلما كان الحق أشرف الموجودات وجب أن يكون في مكان أعلى من جميع الموجودات، فها هنا القلب سلطان البدن وأشرف الأعضاء مع أنه ليس في أعلى موضع من مملكة البدن بل هو مستقر في الوسط فظهر بهذا فساد قول المجسمة أن الأشرف يكون في أعلى المكان والجهة بل هاهنا دقيقة أخرى وهي أن أخسّ الأعضاء للبدن إنما هو الشعر والجلد والعظم وأعلى شيء في البدن هو هذه الثلاثة فعلمنا أن العلو لا يقتضي الشرف والسفل لا يقتضي الخسة.

الحكمة الثامنة: إن كل طباخ وضع اللحم الأحمر في قدر وطبخه فإنه تزول تلك الحمرة ويحدث البياض، وهاهنا الحق ﷻ وضع المني الأبيض في قدر الرحم وطبخه بنار الطبيعة فانقلب الأبيض أحمر، وأيضاً كل أحد يسلط الحرارة على جسم لطيف فإن بسبب تلك الحرارة تزداد الرقة والرخاوة فالحق ﷻ قلب هذه القضية فسلط الحرارة على النطفة الرطبة فيُصيرها منعقدة كثيفة قوية.

فإن قيل: إنما حصلت الكثافة والانعقاد لأن الحرارة لما عملت[2] في تلك الرطوبة بحركتها فبقي الباقي صلباً يابساً، فنقول: إن كان[3] الأمر كذلك وجب أن تؤثر

(1) رواه أبو يعلى: (2329) والبيهقي في السنن: 9/ 3 وفي الأسماء والصفات ص 378 والطبري في التفسير: 29/ 14 من حديث ابن عباس وهو حديث صحيح ورواه أحمد: 5/ 317 وأبو داود (4700) والترمذي (2156) من حديث عبادة بن الصامت.

(2) عملت في الأصل: علمت.

(3) [كان] زيادة يقتضيها السياق.

تلك الحرارة القائمة برحم المرأة وبسائر أعضائها في تجفيف تلك الأعضاء فإن تأثير تلك الحرارة في محلها أولى من تأثيرها في الجسم الأجنبي عنها المباين لها، فلما لم تؤثر تلك الحرارة في تجفيف تلك الأعضاء للأم وأثرت في تجفيف جوهر النطفة علمنا أن تأثيرها في أحد المحلين وعدم تأثيرها في المحل الثاني بتدبير مدبر المخلوقات وتقدير مقدر الكائنات فالطبائع معزولة والخواص باطلة والأفلاك معطلة والكواكب مسخرة ولا تأثير إلا للقدرة الأزلية ولا نفاذ إلا للمشيئة السرمدية سبحانه وتعالى عن قول الظالمين علواً كبيراً.

وأما المرتبة الرابعة: فهي صيرورة العلقة مضغة فالمعنى أنه ينقلب ذلك الدم الجامد مضغة أي: قطعة لحم كأنها بمقدار ما يمضغ كالغرفة لما يغترف واعلم أننا بيّنا أنه يصير علقة في مدة خمسة عشر يوماً، ثم إنه بعد ذلك باثني عشر يوماً يصير مضغة وتتميز الأعضاء الثلاثة بعضها عن بعض وتمتد رطوبة النخاع وربما تقدم ذلك أو تأخر بيومين أو ثلاثة، ثم بعد تسعة أيام ينفصل الرأس عن المنكبين والأطراف عن الضلوع والنظر يميز بحسه في البعض ويخفى في البعض ويحس ذلك بعد تمام الأربعين في الأكثر وفي الآية أبحاث:

البحث الأول: وهو أن المضغة اسم للقطعة من اللحم فقوله تعالى: ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾ [المؤمنون:14] يقتضي تقديم اللحم الذي هو المضغة على تخليق العظام وقوله تعالى: ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ [المؤمنون:14] يقتضي تقديم العظام على اللحم وذلك متناقض.

والجواب ـ وبالله التوفيق ـ: إن المضغة اسم للقطعة الممضوغة من اللحم فهذا الجسم المسمى بالمضغة لا يكون لحماً ألبتة ولا يكون أملس السطح وذلك لأنه مركب من أجسام مختلفة الصورة، فبعضها يكون إذا استحكمت خلقته عظاماً وبعضها إذا استحكمت خلقته يكون عصباً وبعضها إذا استحكمت خلقته يكون عروقاً، ثم إن هذه الأجسام بعدما استحكمت خلقتها لم يتميز بعضها عن بعض تمام التمييز ولم تظهر فيها صلابة وكثافة بل هي باقية على الرخاوة وهي من حيث كونها لينة رخوة تشبه اللحم ومن حيث إنه لم تبق على كرتها وملاستها بل صارت أجساماً مختلفة الطبائع كان كاللحم الممضوغ ولهذا المعنى سمى الله تعالى هذا الجسم بمضغة في هذا الوقت.

البحث الثاني: أنه ﷻ وصف المُضغة في سورة الحج فقال: ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ﴾. والمُخلّقة: المسواة المنشأة الملساء من النقصان والعيب يقال: خلق السواك والعود إذا سواه وملّسه من قولهم صخرة خلقاء إذا كانت ملساء، ثم للمفسرين في المعنى أقوال:

الأول: أن يكون المراد من تمت فيه أحوال الخلق ومن لم تتم، كأنه ﷻ خلق المضغة إلى قسمين: أحدهما تامة الصورة والحواس والتخاطيط، والثاني: الناقصة في هذه الأمور فبيَّن تعالى أنه بعدما صيّره مضغة منها ما يخلقه إنساناً تاماً بلا نقص ومنها ما ليس كذلك، وهذا قول قتادة والضحاك فكأنه تعالى يخلق المُضغ متفاوتة منها ما هو تام خال عن العيوب ومنها ما تكون معيوبة ويتبع هذا التفاوت تفاوت الناس في خلقهم وصورهم وطولهم وقصرهم وتمامهم ونقصانهم.

والقول الثاني: المخلقة الولد الذي يخرج حياً وغير المخلقة أي: غير المصورة وهو الذي يبقى لحماً من غير تخطيط وشكل، واحتج أصحاب هذا القول بما روي عن علقمة عن عبد الله قال: «**إذا وقعت النطفة في الرحم بعث الله ملكاً فقال الملك: يا رب مخلقة أم غير مخلقة؟ فإن قال: مخلقة قال: يا رب ما صفتها؟ أذكر أم أنثى؟ ما رزقها؟ ما أجلها؟ شقي أم سعيد؟ فيقول الله ﷻ: انطلق إلى أم الكتاب فاستنسخ منه صفة هذه النطفة، فينطلق الملك بذلك فيستنسخها ولا تزال النسخة معه حتى يأتي على آخر صفتها**».

والقول الثالث: قال القفال: التخليق مأخوذ من الخلق فما تتابع عليه الخلق بعد الخلق حتى يتم فهو [المخلق][1] وما لم يتم فهو غير المخلق لأنه لم تتوارد عليه التخليقات، واعلم أن القول الأول أقرب لأنه تعالى قال في أول الآية: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم﴾ [الحج:5] وأشار إلى الناس فيجب أن تحمل مخلقة وغير مخلقة على من سيصير إنساناً وذلك يبعد في السقط لأنه قد يكون سقطًا ولم تتكامل في الخلقة.

فإن قيل: هلاّ حملتم ذلك على السقط لأجل قوله: ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ﴾ وذلك كالدلالة على أن فيه ما لا يقره في الرحم وهو السقط، **قلنا**: أن هذا لا يمنع من صحة ما ذكرنا في كون المضغة مخلقة وغير مخلقة لأنه تعالى بعد أن تمّم

(1) الملحق في الأصل: المخلوق.

خلقة البعض ونقص خلقة البعض لا يجب أن يكمل ذلك فيه بل فيه ما يقره الله في الرحم وفيه ما لا يقره، وإن كان قد أظهر فيه خلقة الإنسان فيكون من هذا الوجه قد دخل فيه السقط.

أما قوله: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ فيه وجهان:

الأول: لنبيّن لكم أن انقسام المضغة إلى المخلقة وغير المخلقة يدل على أن المتولي لهذا التدبير ليس هو الطبع بل هو الصانع المختار.

الثاني: إن أول هذه الآية هو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: 5]، فيكون المعنى: إنا أخبرناكم أنَّا خلقناكم من كذا وكذا لنبين لكم ما يزيل عنكم ذلك الريب في أمر بعثكم فإن القادر على هذه الأشياء كيف يعجز عن الإعادة؟ وأما قوله تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الحج: 5]، والمراد منه أن من أقسام هذه المضغة من يبلغه الله تعالى حد الولادة والأجل المسمى هو الوقت المضروب للولادة وهو آخر ستة أشهر أو تسعة أشهر أو أربع سنين أو كما شاء الله وقدره[1] كما كتب ذلك الوقت المعين في اللوح المحفوظ صار ذلك أصلاً.

البحث الثالث: من مباحث هذا الموضع أنا قد ذكرنا أن أصحاب التجارب زعموا أن في أربعين يوماً يصير الحال بحيث يتميز بعض الأعضاء عن البعض وفيه إشكال وذلك لأنه روي في الصحيح عن الأعمش عن زيد بن وهب عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ وهو الصادق الصدوق: «**إن أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل الله ملكاً ينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات فيكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد، فوالله الذي لا إلٰه إلا غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى يكون بينه وبينها ذراع فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل الجنة فيدخلها**»[2]. فهذا الحديث يدل على أنها تبقى أربعين يوماً نطفة ثم تبقى أربعين

---

(1) وقدره في الأصل: وقدراته.

(2) رواه البخاري: (3208، 3332، 6594، 7454) ومسلم (2643).

يوماً علقة ثم تبقى أربعين يوماً مضغة وذلك على خلاف ما حكيتم عن أهل التجارب.

والجواب: أنه وإن انخلقت الأعضاء في مدة الأربعين إلا أن صورة العلقة والمضغة إنما تتم عند انقضاء الأربعينيات الثلاث فلا منافاة بين التجربة وبين كلام صاحب الشرع.

أما المرتبة الخامسة: وهي صيرورة المضغة عظاماً واعلم أن بدن الإنسان مركب من الأعضاء والأعضاء تنقسم إلى قسمين إلى أعضاء بسيطة ومركبة[1]، فالأعضاء المركبة هو الذي لا يكون جزؤه المحسوس مساوياً لكله في الاسم والحقيقة كاليد فإن كل جزء من أجزاء البدن لا يكون مساوياً لكل اليد في الاسم والحقيقة، وأما البسيطة فهي كالعظم فإن كل جزء من أجزائه المحسوسة يكون مساوياً لكله في الاسم والحقيقة.

واعلم أن الأعضاء المركبة إنما تتركب من الأعضاء البسيطة فلهذا السبب لم يذكر الله تعالى في هذا المقام شيئاً من الأعضاء المركبة.

وأما الأعضاء البسيطة فهي عشرة: العظام والأعصاب والرباطات والأوتار والأوردة والشرايين والأغشية واللحم والشحم والجلد إلا أن أصل البدن وأساسه هو العظام فلهذا السبب خصّ الله تعالى العظام بالذكر في هذا الموضع.

واعلم أن العظام يمكن تقسيمها على وجهين:

الأول: أن العظام يحسب منافعها على أقسام:

أحدها: ما قياسه من البدن قياس الأساس وعليه منشؤه مثل فقار الصلب فإنه أساس البدن يبنى كما تبنى السفينة على الخشبة التي تنصب فيها أولاً.

وثانيها: ما قياسه من البدن قياس المجن والوقاية كعظم اليافوخ.

وثالثها: قياسه قياس الآلات التي تتم بها الأعمال. وهي عظام أصابع اليدين والرجلين ثم ما كان من هذه العظام إنما يحتاج إليه للدعامة أو للوقاية ولا يحتاج إليه

---

(1) في الأصل: مركب.

لتحريك الأعضاء فإنه خلق مصمتاً وما كان منها يحتاج إلى الحركة يقدر في مقدار تجويفه وجعل تجويفه في الوسط واحداً ليكون جرمه صلباً ولا يصير رخواً بسبب كثرة المنافذ ثم جعل المخ في وسطه ليرطبه ويمنعه التيبس المعفنة وفائدة زيادة التجويف أن يكون أخف وفائدة توحيد التجويف أن يبقى جرمه أصلب وفائدة صلابة جرمه لئلا ينكسر عند الحركات العنيفة.

القسم الثاني: للعظام إنما بحسب تجاورها على أقسام:

فأحدها: ما يتجاور مفصل سلس وهو الذي لأجل عظمته أن يتحرك حركاته سهلاً من غير أن يتحرك منه العظم الآخر كعظام الأصابع مع الكف ومفصل الرسغ مع الساعد.

وثانيها: ما يتجاور تجاور مفصل عسر غير موثق وهو كعظام فقرات الظهر في النصف الأعلى من الظهر ولولا ذلك لما قدر الإنسان تارة على أن ينتصب انتصاباً وتارة يصير منحنياً كما في وقت الركوع فأما النصف الأسفل من الظهر فأصل عظامه موثقة محكمة.

وثالثها: أن يكون المفصل موثقاً ليس لأحد عظميه أن يتحرك وحده ألبتة مثل مفصل عظام السن.

ورابعها[1]: المركوز وهو ما توجد لأحد العظمين زيادة والثاني ثغرة يركز فيها تلك الزيادة ارتكازاً لا يتحرك فيها بميل الإنسان.

وخامسها: المدرور وهو الذي يكون لكل واحد من العظمين أسنان كما للمنشار وتكون أسنان كل واحد منهما مهندمة في تحاريز الآخر كما يركب الصفارون صفائح النحاس كمفاصل القحف.

وسادسها: أن تكون العظام متلاصقة فمنها ما هي متلاصقة طولاً مثل مفصل ما بين عظمي الساعد، ومنها ما هو ملصق عرضاً مثل مفصل الفقرات السفلى من فقار الصلب.

---

(1) في الأصل: وثالثها وهو سهو من الناسخ.

واعلم أن عظام البدن جملتها مئتان وثمانية وأربعون عظماً، فأما عظام الرأس فخمسة وخمسون سبعة هي عظام اليافوخ وأربعة عشر عظام اللحى الأعلى واثنان هي اللحيان السفليان واثنان وثلاثون سناً فالمجموع خمسة وخمسون، وأما حرزات الظهر فتسعة وعشرون سبعة للعنق وأحد عشر تتصل بها الأضلاع وخمسة هي العطن وثلاثة العجز وثلاثة العصعص، وأما الأضلاع فأربعة وعشرون من كل جانب اثنا عشر والعص، مؤلف من عظام سبعة الترقويان عظمان موضوعان على كل واحد من جانبي العص واليدان معلومتان وكل واحد من اليدين مؤلف من واحد وثلاثين عظماً العضد وطرفه والساعد وهما عظمان ملتصقان بالطول والكف وهي اثنا عشر والرسغ وهو صفان في كل صف أربعة والمشط أربعة أخرى والأصابع خمسة عشر فالمجموع واحد وثلاثون ومجموع عظام اليدين اثنان وستون، وعند العانة عظمان وفخذان وطرفاهما والرصفتان، وعظام القدم سبعة وعشرون فهذا مجموع عظام البدن والكلام فيها وفي منافعها طويل، والنكتة الظاهرة في كيفية الاستدلال بهذه الحالة على الصانع تعالى أن العظام أجسام صلبة قوية فكيف تولدت من النطفة السخيفة الرقيقة؟ وأيضاً فهذه العظام مختلفة فمنها صغير وكبير وطويل ومستدير ومجوف ومصمت وعريض ودقيق فاللائق بكل موضع من مواضع البدن عظم مخصوص لو حصل في ذلك المكان عظم آخر لاختلت المصالح فالطبيعة التي لا شعور لها ولا إدراك كيف يمكن إسناد تخليق هذه الأعضاء إليها؟ وكيف يعقل أن يقال: أن هذه الطبيعة رتبت هذه الأعضاء بهذا الترتيب الموافق للمصلحة وأن هذا مما لا يعقله العقل بل الفطر السليمة والطباع المستقيمة تشهد بأن تخليق هذه الأعضاء لم يصدر إلا عن الصانع الحكيم المدبر العليم.

أما المرتبة السادسة: وهي قوله تعالى: ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾.

اعلم أن أهل التشريح ذكروا أن جميع عضل البدن خمسمائة وتسع[1] وعشرون عضلة.

واعلم أن الخالق ﷻ لما اقتضت حكمته أن يجعل منبع قوة الحس والحركة هو الدماغ وتكون الآلة الحاصلة بين القوتين من الدماغ هو العصب ثم كانت العصب لا يحسن اتصالها بالعظام [التي هي بالحقيقة أصول الأعضاء المتحركة][2] لأن العظام

---

(1) في المخطوط وتسعة وهو سهو الناسخ.

(2) زيادة من (ب).

صلبة والعصب لطيف فأنبت الخالق بحكمته من العظام شيئاً شبيهاً بالعصب يسمى رباطاً فجمعه مع العصب وشبكه به كشيء واحد، إلا أن هذا الجرم الملتئم من العصب ومن الرباط كان دقيقاً أيضاً فدبر الخالق في ذلك بأن جعل ذلك الجرم متقوساً وملأ خلله لحماً وغشاه غشاءً دقيقاً صلباً، وجعل في وسطه شيئاً كالمحور من جملة العصب فهذا العضو هو العضلة، **وفيه فوائد كثيرة:**

إحداها: أنه لما فيه من اللحم منشأ لمنافع كثيرة منها أن يكون حشواً يخلل الفُرج الحاصلة بين العظام، ومنها أن اللحم متولدة من الدم الذي هو حار رطب فيكون اللحم سبباً لزيادة السخونة في الأعضاء مثل حشو الجبة. ومنها أن يكون حائلاً بين عظام البدن وبعضها مع بعض. ومنها أن يكون حائلاً بين عظام البدن وبين الأجسام الصلبة الخارجة عن البدن ويكون ذلك اللحم شبيهاً بالمغربة[1] اللينة التي يجلس الإنسان عليها فلا يتألم بسبب المصّاكة الحاصلة بين عظام البدن وبين الأجسام الصلبة الموجودة من الخارج.

والفائدة الثانية: أن هذه العضلات [بسبب ما فيها][2] من شظايا العصبة يجري قوة الحس والحركة فيتمكن الإنسان بسببها من الحركات الإرادية والأفعال الاختيارية.

والفائدة الثالثة: أن هذه العضلات بسبب ما فيها من شظايا الرباط وبسبب كونها مجللة بهذه الأغشية الصلبة تكون صلبة قوية لا تعرض لها الانهتاك[3] والانقطاع سريعاً فهذه إشارة مختصرة إلى منافع هذه العضلات.

وأما المرتبة السادسة: فاللحم، قال الله تعالى: ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ فإن قيل أنه تعالى ذكر في جميع المراتب لفظ الخلق فقال:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾ [المؤمنون: 12-14].

وفي هذه المرتبة لم يذكر لفظ الخلق بل قال: ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ فما السبب؟!

---

(1) المغربة كساء ذو طاقين بينهما قطن.
(2) زيادة من (ب).
(3) الانهتاك في (ب) الانفكاك.

قلنا: السبب فيه أن العظام والأعصاب والعروق أعضاء أصلية متولدة من النطفة ولذلك إذا بطل لا تعود، وأما اللحم فإنه ليس من الأعضاء الأصلية ولذلك فإنه إذا ذهب بالهزال عاد بالسمن مرة أخرى، وهو إنما يتولد من دم الطمث لا من المني فلما كان الأمر كذلك لا جرم جعل اللحم كالكسوة للأعضاء الأصلية. وأيضاً فقد ذكرنا أن فائدة اللحم أفادت السخونة للأعضاء وأن تكون كالمغربة اللينة التي إذا جلس الإنسان عليها لم يتألم بسبب المصّاكة الحاصلة بين عظامه وبين الأجسام الصلبة الخارجية وهذه المنافع والفوائد شبيهة[1] بالفوائد المطلوبة من الثياب الملبوسة، فلهذا السبب ذكر في هذه المرتبة لفظ الكسوة فسبحان من له تحت [كل][2] كلمة من كلمات هذا الكتاب الكريم سر شريف ونكتة روحانية.

أما المرتبة السابعة: وهو قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ فاعلم أن المراد بالخلق الآخر قولان:

الأول: المراد نفخ الروح وزعموا أن الروح ليس من جنس البدن فلهذا المعنى جعل هذه المرتبة نوعاً آخر من الخلق مغايراً للمراتب المتقدمة واحتجوا عليه بوجوه من المعقول:

الحجة الأولى: أن المراتب المذكورة لا يكمل الانتفاع بها إلا بنفخ الروح فوجب في الحكمة ذكر الروح عقب تلك المراتب والمذكور عقب تلك المنافع هو قوله تعالى:

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ فدل على أن المراد نفخ الروح فلما عبّر عن نفخ الروح بأنه خلق آخر علم أن الروح ليس من جنس البدن.

الحجة الثانية: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ فالتسوية عبارة عن تخليق الأبعاض والأعضاء ونفخ الروح فيه إشارة إلى تعلق الروح بالبدن. ثم إنه تعالى لما أضاف الروح إلى نفسه دلّ على أنه متميز في ذاته بمزيد شرف لا يحصل مثله للأجسام.

---

(1) شبيهة: في الأصل شبيه.
(2) زيادة يقتضيها السياق.

الحجة الثالثة: أنه تعالى ميّز بين عالم الأرواح وعالم الأجسام فقال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:54] فجعل التباين بين هذين النوعين ثم أنه تعالى حكم بأن الروح من عالم الأمر فقال: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ ثم بين أنه لا سبيل للبشر إلى معرفته فقال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ولو كانت من جملة الأجسام لما صحت هذه الأحوال.

الحجة الرابعة: أنه تعالى أضاف الأفعال إلى النفس فقال: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف:53] وقال: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ وقال: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر:27-28] ومعلوم أن جميع الأجزاء البدنية ليس مبدءًا للأفعال فعلمنا أن النفس يدبر البدن وهو غير البدن.

الحجة الخامسة: قوله تعالى: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ وهذا [صريح][1] في أن النفس شيء مغاير للبدن تارة تدخل البدن وتارة تخرج منه.

الحجة السادسة: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ وكل أحد لا ينسى هذا الهيكل الذي يشاهده بحواسه فدل على أن تلك النفس التي ينساها الإنسان عند فرط جهله شيء آخر غير هذا البدن.

الحجة السابعة: قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس:7-8] وهذا صريح في أنّ هنا نفساً هي محل الإلهامات ومحل الفجور والتقوى، ومعلوم أن كل واحد من أجزاء البدن وأبعاضه ليس كذلك فهذه النفس شيء مغاير لهذه الأعضاء.

الحجة الثامنة: القرآن دال على أن الشيء المشار إليه بأنه هو الإنسان المخصوص باقٍ[2] بعد الموت قال تعالى في صفة الشهداء: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ وقال في صفة المعذبين: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ وقال تعالى: ﴿أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ [نوح:25] وقال ﷺ: «**أنبياء الله لا يموتون ولكنهم ينقلون من دار إلى دار**» فثبت أن الشيء المشار إليه بأنه هو الإنسان باقٍ بعد الموت للبدن حتى يدرك الآلام واللذات. وأما أن هذا البدن المشار إليه ليس

---

(1) (صريح) زيادة يقتضيها السياق.

(2) باق في الأصل (باقي).

حياً بعد الموت فهو معلوم بالضرورة فلو جوّزنا كونه حياً لجاز مثله في جميع الجمادات وهو سفسطة وإذا لاحت المقدمتان علمنا أن المشار إليه بقولنا هذا الإنسان ليس هو هذا البدن.

الحجة التاسعة: قوله ﷺ: **«من عرف نفسه فقد عرف ربه»**[1] وكان في كتب الله المنزلة: «اعرف نفسك تعرف ربك» ولو كان المراد من النفس هو هذا الجسد المشاهد لما أمرنا بمعرفته لأن معرفته حاصلة بالضرورة والحاصل لا يمكن تحصيله.

الحجة العاشرة: أنا نجد من أنفسنا أنا نضيف كل واحد من هذه الأعضاء إلى أنفسنا فنقول: يدي ورجلي وقلبي ودماغي. والمضاف غير المضاف إليه فعلمنا أن النفس غير هذه الأعضاء. فإن قالوا: فقد يقولون نفسي وذاتي وهذا يقتضي أن تكون نفس الشيء مغايرة لنفسه وهو محال: وجوابه أنا إذا أضفنا النفس والذات إلينا كان المراد من النفس والذات هو البدن وهو مغاير لذلك الشيء المشار إليه بأنه هو الإنسان. فهذه استدلالات سمعية على إثبات النفس، ولمن أنكر النفس أن يجيب عن الكل بجواب واحد وهو أنه لا نزاع أن النفس شيء مغاير لهذا البدن المحسوس. وكيف لا نقول ذلك والإنسان قد يمرض فيذبل غاية الذبول ثم يبرأ فيسمن بعد ذلك غاية السمن والإنسان واحد في الحالتين مع أن أجزاء البدن متبدلة. لكنه لم لا يجوز أن يقال البدن منقسم إلى قسمين: أحدهما أجزاء أصلية باقية من أول الخلقة إلى آخرها، والثاني أجزاء متبدلة عرضية يطرأ ويزول فالإنسان عبارة عن تلك الأجزاء الأصلية فهذا ما في هذا البحث.

إذا عرفت هذا فنقول: إذا حملنا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ على الروح فها هنا لطائف:

الأولى: قال بعضهم: أنه خلق الأرواح من أنوار عالم الجمال والجلال [فالقوة النظرية مع ما فيها من بهجة المعرفة والمحبة من عالم الجمال][2] والقوة العملية المدبرة للبدن من عالم الجلال ولولا أن أنوار الأرواح مستورة بظلمات الأجساد وإلاّ لسجد لها كل كافر.

---

(1) لا أصل له من كلام رسول الله، انظر المقاصد الحسنة وغيرها. بل هو موضوع كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية، وقال النووي: ليس بثابت، وانظر كشف الخفاء (2/ 262).

(2) زيادة من (ب).

الثانية: قال بعضهم: الله تعالى خلق الأرواح من النور والطيب والنقاء والعلوم والعلو والحياة، أما النور فلأنه ما دام الروح في الجسد نورانياً فالعينان تبصران والأذنان تسمعان واللسان يتكلم والقلب يفهم والدماغ يتفكر، فهذا يدل على (أن)[1] الروح من عالم الأنوار والدليل على أنه من جوهر الطيب أنه ما دام الروح في الجسد يكون الجسد مصوناً عن الفساد والتفرق والانحلال، والدليل على أنه من جوهر العلو أنه ما دام الروح في البدن يكون البدن مرتفعاً عن الأرض غير ملتصق بها وكلما ازداد الروح قوة ازداد الارتفاع ألا ترى أن الإنسان عند استيلاء أنوار عالم الروحانيات على روحه يأخذ في الرقص. والسبب فيه أنه قوة روحانية فصارت تلك القوة الروحانية جاذبة من الأرض إلى عالم السمٰوات والأنبياء عليهم السلام لما كملت هذه الأحوال منهم صعدوا إلى السمٰوات فقال تعالى: في حق إدريس ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ وقال في حق عيسى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: 55] وقال في حق محمد ﷺ: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ والدليل على أنه من جوهر العلم أن محل العلم هو الروح وذلك لأن العلوم نفوس علوية غيبية طاهرة مقدسة فلا يكون محلها إلا الجوهر القدسي العلوي. والدليل على أنه من جوهر الحياة أنه متى انقطع أثره عن جزء من أجزاء البدن صار ذلك الجزء ميتاً كما في المفلوج، وإن تعلق بجميع البدن صار كله حياً وبالجملة فالروح كالشمس والحياة كالنور الفائضة عن الشمس وذلك (كما أن)[2] كل جسم وصل إليه نور الشمس انقلبت أحواله من الظلمة إلى الضياء كذلك كل عضو يصل إليه نور الروح انقلبت حاله من الموت إلى الحياة.

النكتة الثانية: دلالة ارتباط تدبير هذا البدن بالروح على افتقار كل العالم إلى الصانع في غاية الظهور وذلك لأن هذا البدن مملكة صغيرة جداً وإذا كانت هذه المملكة الصغيرة لا يعقل استغناؤها عن ملك مطاع فيه فكل العالم الذي هو المملكة الكبرى كيف يمكن استغناؤها عن مدبر يدبرها ومتصرف يتصرف فيها. وكما أن المدبر في هذه المملكة الكبرى يجب أن يكون واحداً فكذلك في عالم الصغرى.

والنكتة الثالثة: أن المؤمن بذاته علوي وبصفاته علوي: أما ذاته فكقوله تعالى:

---

(1) (أن) زيادة يقتضيها السياق.

(2) زيادة يقتضيها السياق.

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ وقال: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: 11] وأيضاً أفعاله وأقواله علوية قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: 10] وكتابه علوي: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: 18] ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ [التوبة: 40] وأما الكافر فكلمته سفلية[1] قال الله تعالى: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات:98] وأفعاله سفلية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ [الأعراف:40]، وكتابه سفلي: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ [المطففين:7] فيا أيها المؤمن العلوي لا تجعل روحك سفلياً بالمعصية، ويا أيها النوراني لا تجعل نفسك ظلمانية بالإعراض عن الله، ثم أنه تعالى بيّن من خلقتك أن العلوي أشرف من السفلي والروحاني أفضل من الجسماني وذلك لأنه خلق فيك أعضاءً علوية وأعضاءً سفلية: أما العلوية فالقلب والعين واللسان، وأما السفلية فالبطن والمخرجان، فمن استعمل العين في العبرة واللسان في الحكمة والقلب في المعرفة صار علوياً شريفاً، ومن استعمل البطن في أكل الحرام والفرج في الزنا والحرام صار سفلياً خسيساً، ثم أكد هذه الدلالة بأن جعل الرئة التي هي معدن النفس الصاعد فوقانياً والمعدة التي هي معدن الهابط سفلياً ليعلم أن كل من كان علوياً سماوياً فهو الشريف وما كان أرضياً سفلياً فهو الخسيس.

والنكتة الرابعة: الروح محل العلم ويجب أن يعلم أن الموجودات على ثلاثة أقسام: موجود لا يجوز أن لا يعلم وهو الله ﷻ، وموجود لا يجوز أن يعلم وهو الجماد، وموجود يجوز أن يعلم ويجوز أن لا يعلم وهو أنت، فإن صرت أن تعلم شيئاً فقد تخلقت بأخلاق الله وإن صرت لا تعلم شيئاً فقد صرت مشابهاً للجمادات فامتيازك عن الجمادات والتحاقك بزمرة الملائكة المقربين وملازمتك لجنّة[2] رب العالمين إنما حصل بسبب إيصال الروح بالبدن وعند هذا يظهر منقبة الروح وفضيلته.

القول الثاني: أن المراد من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ تخليق الأعضاء الجسمانية.

واعلم أن تمام الكلام في شرح قدرة الله تعالى وحكمته في خلق الإنسان قد

---

(1) (سفلية) في الأصل (سفلي).

(2) لجنة رب العالمين في (ب) لعتبة رب العالمين.

ذكرنا في علم التشريح في الطب الكبير، ولنذكر ها هنا نكتاً قليلة من المنافع الظاهرة الجلية التي يصل إليها فهم كل أحد فنقول: انظر إلى النطفة وهي قطرة قذرة من الماء لو تركت ساعة لتضربها الهواء بطلت وفسدت كيف أخرجها ربّ الأرباب من بين الصلب والترائب، وذلك لأنه سبحانه أوقع الألفة والمحبة في قلوبهم ثم قادهم بسلسلة الشهوة والمحبة إلى الاجتماع ثم استخرج النطفة من الرجل بحركة الوقاع واستخرج دم الحيض من أعماق العروق وجمعها في الرحم ثم خلق المولود من النطفة وسقاه بماء الحيض حتى نما وربا، وكيف جعل النطفة وهي بيضاء مشرقة علقة حمراء ثم جعلها مضغة ثم قسم أجزاء المضغة إلى العظام والأعصاب والعروق والأوتار واللحم في داخل الرحم في الظلمات الثلاث، ولو انكشف الغطاء والغشاء لكنت ترى التخطيط والتصوير يظهر في النطفة شيئاً فشيئاً ولا ترى المصور ولا قلمه ولا آلته، فهل رأيت مصوراً وفاعلاً لا يمشي إليه مصوره ولا يلاقيه؟! فسبحانه ما أعظم شأنه. ولنُشِر هاهنا إلى قليل من تشريح الأعضاء، أما الرأس فتأمل أنه ﷻ دوّرها وشقّ سمعها وبصرها وأنفها وفمها وأنه تعالى ركّب كرة الرأس في بطن الأم من ثلاثة وعشرين عظماً وخلق تلك العظام على كيفية مختلفة فكيف تولدت العظام الصلبة من النطفة السخيفة الرقيقة؟ ثم إنه سبحانه قدر كل واحد من تلك العظام بشكل مخصوص ومقدار مخصوص ووضع مخصوص، ولو وقع بخلاف ذلك لبطلت المنفعة وفات الغرض ثم ركب بعضاً مع بعض بحيث يحصل من مجموعهما كرة الرأس على هذه الخلقة المخصوصة.

واعلم أنه تعالى إنما يظهر الاحتياط في عظم الرأس لأجل أن الدماغ أشرف أعضاء الإنسان فإنه محل الفكر والعقل ولما كان في غاية الشرف فإنه [صانه بسبعة][1] أنواع من الصوانات وذلك لأن الدماغ يحيط[2] به غشاء رقيق يقال له غشاء السمن وفوق ذلك الغشاء غشاء آخر صلب وهو ملتصق بمقعر عظم اليافوخ، ثم فوقهما عظم اليافوخ ثم خلق خارج العظم غشاءً آخر يقال له السحماق وفوق هذا[3] الغشاء طبقة لحمية وفوق تلك الطبقة اللحمية الجلد وفوق الجلد الشعر فتأمل أنه تعالى خلق فوق دماغك سبع طبقات جارية مجرى السمٰوات السبع.

(1) (صانه بسبعة) في (أ) (صنع).
(2) يحيط في (أ) محيط.
(3) هذا في (أ) هذه.

والمقصود من تخليقها الاحتياط في صون دماغك عن الآفات. والمقصود من تخليق دماغك أن تكون من المتفكرين في دلائل الله المتأملين في مخلوقاته لتستدل بها على جلالة خالقها وحكمة بارئها. ولنذكر الآن بعض صفات الدماغ فنقول أنه تعالى قسمه في طوله إلى ثلاثة أقسام وجعل القسم المقدم محل الحفظ والتخيل والبطن المتوسط محل التأمل والتفكر وجعل البطن المؤخر محل الاسترجاع والتذكر، وكل واحد من هذه الأحوال الثلاثة أمور مهمة للإنسان لا يحصل الانتفاع بالإنسانية إلا معها. **أما الحفظ والتخيل فأمر لا بد منه في الإنسانية ويدل عليه وجوه:**

الأول: إن الإنسان محتاج إلى التفهم، والتفهم بالكلام، والكلام مركب من الحروف وهذه الحروف لا توجد مجتمعة ألبتة بل متعاقبة فلو لم يكن الإنسان حافظاً لصور المحسوسات بعد غيبوبتها لكان الإنسان إذا سمع حرفاً ثم انقضى ذلك الحرف الأول ووجد الحرف الثاني فعند حصول الحرف الثاني لا يكون الحرف الأول موجوداً في الخارج ولا يكون أثره أيضاً باقياً في الحفظ فحينئذٍ لا يكون المسموع أبداً إلا حرفاً واحداً والحرف الواحد لا يفيد المعنى ألبتة فثبت أنه لولا الحفظ ما كان يحصل التفهيم والتفهم بالكلام فكانت هذه المصلحة تختل وتبطل.

الثاني: إن الإنسان إذا رأى شيئاً ثم غاب عنه ثم رآه مرة أخرى عرف أن هذا الذي يراه الآن هو الذي رآه قبل ذلك، وذلك لأنه لما رآه في المرة الأولى ثم غاب عنه بقيت صورته في الحفظ فلما رآه مرة ثانية صارت هذه الصورة المحسوسة ثانياً منطبقة على تلك الصورة المحفوظة في الخيال فيحصل الشعور بأن هذا الذي يراه الآن هو الذي رآه قبل ذلك فلولا القوة الحافظة لما حصل هذا المعنى ولو لم يحصل هذا المعنى لاختل نظام العالم فما كان يعرف الزوج زوجته ولا السيد عبده واحتاج كل أحد إلى أن يعرف حال كل شخص في كل أمر يراه.

الثالث: أن خاصية الإنسان أن يتوسل بالفكر إلى أن يصير المجهول معلوماً، والفكر عبارة عن تركيب الأشياء الحاضرة في الذهن ليتوصل بتركيبها حضور مجهول لمعلوم ولا معنى لحضور الأشياء في الأذهان إلا حضور مثلها وأشباهها في القوة الحافظة، فالقوة الحافظة في دماغك جارية مجرى اللوح المحفوظ في عالم السمٰوات وبقاء صور المحسوسات في خيالك نسبة بقاء كتبة أحوال المخلوقات في اللوح المحفوظ فثبت بما ذكرنا أن القوة الحافظة من أعظم نعم الله على الإنسان. ثم فيه أمر

آخر عجيب لا يعرفه إلا الله سبحانه وذلك لأن هذه الصور الذي نتخيلها ونشاهدها حال ما نشاهدها وحال ما نستحضرها إما أنه يقال أنها موجودة أو يقال أنها معدومة، والقول بكونها معدومة باطل لأنا نميز بين كل واحد منها وبين غيرها بل كأنّا نشاهدها وننظر إليها حاضراً[1] في خيالنا فإنّا إذا نظرنا إلى قرص الشمس ثم غمضنا العين فإنا نشاهد قرص الشمس حاضراً في خيالنا كأنا ننظر إليه فثبت أنها موجودة. ثم قال قوم أن محل هذه الصورة الخيالية بمقدم دماغنا، وقال آخرون بل مقدم الدماغ آلة في هذا العمل ومحل هذه الصورة جوهر الروح والروح ليس بجسم ولا جسماني وكل واحد من القولين عجيب جداً.

أما الأول: فهو أن مقدم الدماغ [جسم][2] صغير جداً فكيف ارتسم في ذلك الجسم الصغير صور السمٰوات والأرضين والشمس والقمر وصور البلدان المسالك والممالك؟!، والإنسان أيضاً ربما يحفظ كتباً كثيرة، فكيف اتسع ذلك الجسم الصغير لهذه الصور العظيمة؟ وقد يحفظ الكلمات التي سمعها من أول عمره مع كثرتها فكيف ارتسمت هذه الصور الكثيرة في هذا الجسم الصغير من غير أن يختلط شيء من هذه (الصور)[3] بعضها ببعض؟ ولا شك أنها من العجائب التي لا يعرفها إلا المدبّر الخالق.

والقول الثاني: وهو أن محل هذه الصور جوهر الروح وهو ليس بجسم ولا جسماني فهذا أعجب لأن هذه الصور لها أطوال وعروض وامتداد في الجهات والأحياز فكيف يعقل حلولها في شيء وليس لها طول ولا عرض ولا امتداد في الجهات وبالجملة فنحن نعلم بالضرورة أنا نحفظ صور هذه المحسوسات، وإذا أردنا أن نعلم أنا كيف نحفظها عجزنا عن ذلك فسبحان الخالق الحكيم، ومن جملة نعم الله ﷻ علينا في كيفية هذا الحفظ أنه جعل الحافظ بصور المحسوسات الخمسة شيئاً واحداً والفائدة فيه أنا إذا سمعنا صوتاً علمنا ذلك الشخص لأن القوة الحافظة تعلم أن الذي له هذا الصوت ذلك الشخص فحينئذٍ تفيد السمع فائدة البصر ويقوم كل واحد من الحواس الخمس مقام الآخر.

---

(1) (حاضراً) في الأصل (حاك).
(2) (جسم) في الأصل (في جسم).
(3) (الصور) في الأصل (النفوس).

وأما البطن الأوسط من الدماغ: فهو محل الفكر ومعنى الفكر أن تركب القوة المفكرة شيئين من الأشياء الحاضرة عند قوة الحافظة فيصير ذلك التركيب سبباً لاستجلاب صورة جديدة عند العقل. وجميع التركيبات التي أحدثها أهل الدنيا في بناء المساكن واستخراج الحرف والصناعات فهو من أعمال القوة المفكرة فالقوة المفكرة تستخرج تلك الصور بهذا الطريق، ثم إن القوة العملية تنقل تلك الصور من الأفكار إلى الخارج ومن المعلوم أنه لولا الفكر لما اهتدى الإنسان إلى تحصيل المصالح ودفع الآفات وهما أعظم النعم بخلق القوة المفكرة ومن أراد أن يعرف قدر هذه النعمة فلينظر إلى البهائم والمجانين. واعلم أن (القوة)[1] المفكرة كالعلم والقوة الحافظة كاللوح فإن القوة المفكرة إذا استنبطت صورة جديدة ارتسمت تلك الصورة في لوح الخيال فكان المثبت هو الفكرة والقابل هو الخيال فكانت المفكرة قلماً والحافظة لوحاً.

واعلم أنا وإن كنا نعلم بالضرورة أنا نتفكر إلا أننا إذا أردنا أن نعلم هذا الفكر ما هو صعب علينا ذلك، فإن هذا الذي طلبناه هل نعلمه أم لا فإن علمنا فكيف نطلب العلم به وإن لم نعلمه فكيف يمكننا طلب شيء لم يخطر ذلك الشيء ببالنا.

وأما البطن الآخر من الدماغ: فهو التذكر ومعنى التذكر أن من حضر في ذهنه أمر من الأمور ثم غاب عنه فإنه يستوحيه بعد غيبوبته، وهذه الحالة حاصلة للإنسان فإنه ليس كل ما رآه الإنسان وسمعه في مدة عمره فإنه يكون حاضراً في خياله بل أكثر هذه الصور في أكثر الأحوال غير حاضرة في الذهن لكنها وإن كانت غائبة إلا أن الإنسان متى أراد استحضارها قدر عليه فهذا الاستحضار هو التفكر، ولا شك أن خلق هذه القوة نعمة عظيمة من الله على الإنسان.

واعلم أيضاً أن هاهنا حالة عجيبة تعجز العقول البشرية عن معرفة كيفيتها وذلك لأن هذه الصورة إذا كانت غير حاضرة فتذكرها عبارة عن طلب رجوعها، فهذا الطلب إما أن يكون طلباً لتلك الصورة بعينها أو يكون طلباً لصورة ما مبهمة أية صورة كانت، فإن كان الأول فهو محال لأنها غير معلومة بعينها إذ لو كانت معلومة بعينها لكانت حاضرة فما كان الإنسان يحتاج إلى طلبها وامتنع طلبها بعينها، والثاني أيضاً محال لأن

---

(1) (القوة المفكرة) في الأصل (قوة المفكرة).

المطلوب إذا كان صورة ما لا هذه الصورة، فلم حصلت هذه الصورة بعينها دون سائر الصور؟ وإذا حصلت هذه الصورة بعينها حكم العقل بأن مطلوبي كان هو هذه الصورة فهذا إشكال عظيم وبالجملة فكل أحد يجد من نفسه بالضرورة أنه يحفظ الأشياء ويتفكر فيها ويستعيدها بعد غيبتها. ثم إن العقول متحيرة في معرفة حقيقة هذا الحفظ والفكر والذكر، فسبحانه ما أعظم شأنه وأبهر برهانه في أصناف ملكه وملكوته فهذا هو الإشارة المختصرة إلى خلقة الدماغ. ثم تأمل أحوال العين فإنها مركبة من سبع طبقات وثلاث رطوبات، وبالحقيقة فهي مركبة من عشر طبقات وثلاث رطوبات فالطبقة السفلانية هي الطبقة الصلبة وفوقها المشيمة وفوقها الشبكة وفي الطبقة (الشبكية)[1] الرطوبة الزجاجية وفوقها الرطوبة البيضية وفوقها الطبقة العينية والطبقة القرنية بعدها الظاهر طبقة واحدة لكنها في الحقيقة أربع طبقات، ثم يحيط بهذا المجموع الطبقة الملتحمة فإذا عرفت هذا علمت أن طبقات العين ثلاث عشرة طبقة على عدد طبقات العالم الأكبر، فإن أعلى الطبقات للعالم الأكبر العرش وتحته الكرسي وتحته السمٰوات السبع وتحتها الطبقات الأربعة للعناصر فمجموع طبقات العالم الأكبر ثلاث عشرة ومجموع طبقات العين ثلاث عشرة[2]، ثم إنه تعالى خص كل واحدة من هذه الطبقات والرطوبات بشكل مخصوص ومقدار مخصوص وترتيب مخصوص. لو لم يوجد على ذلك الوجه بل على وجه آخر لاختلت المصالح، **ثم تأمل في أحوال العين من وجوه:**

الأول: أنه ﷻ جعل في موضع الإبصار مقدار عدسة واحدة ثم أظهر في تلك العدسة صورة السماء والعالم مع اتساع أطرافها وتباعد أكنافها.

الثاني: أن البياض مناسب للنور والسواد مناسب للظلمة فجعل البياض سبباً للعمى والسواد معدناً للقوة الباصرة ليعلم أن سبب حصول هذه النعمة فضل الله وكرمه لا الطبع والخاصية.

الثالث: أنه ﷻ جعل الحدقة مصونة بالأجفان لتسترها وتحفظها وتصقلها وتدفع الأقذار عنها.

---

(1) (الشبكية) في الأصل (الشبكة).
(2) (ثلاث عشرة) في الأصل في الموضعين (ثلاثة عشر).

الرابع: أنه ﷻ جعل الأجفان سوداً ليكون سوادها سبباً لاجتماع النور الذي يعين على الإبصار ويكون مانعاً عن تفرق ذلك النور.

الخامس: أنه خلق لتحريك الحدقة أربعاً وعشرين[1] عضلة لو نقصت واحدة من جملتها اختل أمر العين.

السادس: أن العين تشبه المرآة ومعلوم أن المرآة إنما يُنتفع بها إذا كانت في غاية الصقالة والصفاء، فلما كانت العين لا يُنتفع بها إلا حال كونها في غاية الصقالة والصفاء لا جرم أن الحق ﷻ خلق هذه الأجفان متحركة إلى الانطباق أبداً من غير اختيار لإنسان حتى تبقى الحدقة نقية صافية عن جميع الكدورات.

وأما الذبابة فلِمَ لَم يخلق لعينها الأجفان لا جرم ألهمها حتى أنها [ببدنها تقي][2] عينيها عن الغبار والكدورات.

السابع: أنه تعالى جعل العين هادياً لصاحبها إلى إدراك الأشياء وسبباً لاطلاع غيره بواسطته على ما في قلب صاحبه، وذلك لأن القلب في داخل البدن والعينان كالزجاجتين الموضوعتين على جدار البيت فكيف ما كان الشمع في داخل البيت وقع ضوءه على الزجاجتين فكذلك يستدل بأحوال العين على أحوال القلب في الرضى والغضب والرغبة والنفرة، فسبحانه من جعل العين هادياً لصاحب العين إلى معرفة العين والعين على معرفة أحوال قلب صاحب العين.

الثامن: هو أن ألطف أعضاء البدن هو العين ثم إن جميع الأعضاء تتأثر من الحر والبرد فوق ما تتأثر منهما العين، وكان ينبغي أن يكون الأمر بخلاف ذلك لأن الألطف أسرع تأثراً، لكنا نرى أن الرِّجل على صلابة جلدها تتأثر من الحر والبرد فوق ما تتأثر العين منهما وكان ينبغي أن يكون الأمر بخلاف ذلك لأن الألطف أسرع تأثراً وما ذاك إلا ليعلم أن حصول هذه المصالح ليس بالطبع والخاصية بل بحفظ العليم الرحيم.

وأما أحوال الأذن: فاعلم أنه تعالى شق الأذنين وأودعهما ماء مرًا ليكون ذلك

---

(1) أربعاً في الأصل (أربعة).

(2) (ببدنها تقي) في الأصل (ببدنها).

معيناً على إدراك السمع وليمنع الهوام عن الدخول في الأذن ثم راعى فيه أنواعاً من المصالح.

الأول: أنه تعالى حوطها بصدفة الأذن لتجمع الصوت فيردها إلى الصماخ.

الثاني: أنه تعالى جعل في ثقبة الأذن انحرافات وانعراجات حتى تصير المسافة لهذا السبب طويلة، فلو دخل الثقبة شيء من الهوام والحشرات فحينئذٍ تكثر حركاتها بسبب طول المسافة فينتبه الإنسان ويسعى في إخراجه عن الأذن.

الثالث: أنه تعالى جعل العينين مقدمتين والأذنين مؤخرتين لأن العينين تدركان الأجسام والأعراض وهي أدلة وجود الصانع والأذنان يسمعان الكلام. والدلائل العقلية مقدمة على الدلائل السمعية فلا جرم قدم البصر على السمع.

الرابع: خلق العينين مع الغطاء والأذنين بلا غطاء لأن متعلق العينين أجسام وأعراض باقية فلولا الغطاء فيهما فكانا على خطر، ومتعلق الأذنين الصوت فلو كان لهما الغطاء لزال الصوت قبل ارتفاع الغطاء فلا يحصل الانتفاع بالسمع.

الخامس: روى كعب الأحبار قال: دخلت عليَّ عائشة فقلت: «الإنسان عيناه (هاديتان)[1] وأذناه قمع ولسانه ترجمان ويداه جناحان ورجلاه بريد والقلب ملك وإذا طاب الملك طاب جنوده»، فقالت: هكذا سمعت رسول الله ﷺ[2].

واما الأنف: فإنه سبحانه رفعه من وسط الوجه وأحسن شكله وفتح منخريه وأودع فيهما حاسة الشم وفيه منافع.

الأول: أنه يستدل باستنشاق الروائح على الأغذية والمطاعم المستورة.

الثاني: لنستنشق بمنفذ المنخرين الهواء البارد والطيب فنستغني بالمنخرين عن فتح الفم أبداً.

الثالث: أنه جعل تجويفه واسعاً حتى ينحصر فيه هواء كثير فينكسر برده قبل النفوذ إلى الدماغ فإن الهواء المستنشق وإن كان ينفذ إلى الرئة أكثر فإن شطراً صالحاً

(1) (هاديتان) في الأصل «هادياً».

(2) لم نره في المراجع الموجودة لدينا.

لمقدار ينفذ أيضاً إلى الدماغ فلذلك فإن المزكوم يضره استنشاق الهواء البارد.

الرابع: أن تجويفه الواسع يجذب إلى نفسه هواءً كثيراً حتى يحصل أمام آلة الشم فيكون إدراك الشم أسهل ولذلك فإن من بالغ في التشمم جذب الهواء بخيشومه أكثر.

الخامس: أنه يعينه على تقطيع الحروف وتسهيل إخراجها فلذلك إن من قبض على أنفه عسر عليه التكلم بأكثر الحروف.

السادس: أن يكون للفضول المندفعة من الرأس ستر ووقاية عن الإبصار. واعلم أن النَّفَسَ عظيمة فلو انقطع عن الإنسان لحظة واحدة لمات. ثم تأمل أن الهواء المستنشق يدخل أولاً من المنخرين فينكسر برده هناك ثم يصل إلى الحلقوم فيعتدل مزاجه هناك ثم يصل إلى الرئة ويتصفى فيها ثم يصل إلى القلب فيروح عن الحرارة الغريزية وينفذ من القلب إلى العروق المتحركة ويبلغ إلى أقصى أطراف البدن، ثم إذا تسخن جداً وخرج عن حد الانتفاع عاد من تلك الأقاصي إلى القلب ثم إلى الرئة ثم إلى الحلقوم ثم إلى المنخرين ثم يخرج ويعود مثله فمجموع هذه الأفعال وهو المسمى بالنفس الواحد، ويقال أن الإنسان يتنفس في كل يوم أربعة وعشرين ألف نفس فاعرف مقدار النَّفَسَ الواحد في المنفعة فإنه لو انقطع لحصل الموت. ثم انظر إلى كثرة الأنفاس لتعرف عظيم نعمة الله عليك كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل: 18].

وأما الفم: فإنه ﷻ جعله آلة لتحصيل مصالح الروح ولتحصيل مصالح البدن أما مصالح الروح فلأنه أودع فيه اللسان الناطق المعرب لما في القلب.

واعلم أنه ﷻ خلق القلب أميراً للبدن ومعدناً للحرارة الغريزية فاحتاج القلب إلى تعديل تلك الحرارة القوية بالنسيم البارد المعتدل، فإذا استدخل الهواء البارد ووصل إلى القلب واعتدلت حرارة القلب به وبقي ذاك هناك ساعة تسخن واحترق فاحتاج القلب إلى إخراج تلك النفس فجعل المدبر الحكيم الفاطر العليم إخراج ذلك النفس سبباً لحدوث الصوت، ثم جعل في الحنجرة وفي اللسان وفي الحنك وفي الشفتين مقاطع ومخارج لحروف مختلفة فحصلت الحروف بهذا الطريق، ثم جعل تلك الحروف عند تأليفها وتركيبها مؤدية للمعاني فانظر إلى كمال الحكمة فإن المقصود

الأصلي من النفس هو إيصال النسيم البارد إلى القلب فأما إخراج النفس فهو جار مجرى دفع الفضلة الفاسدة. ثم إنه ﷻ صرف هذا المعنى إلى رعاية مصلحة أخرى وهو أنه جعلها مادة الحروف والأصوات والكلام ثم إنه ﷻ خلق الحناجر مختلفة الأشكال في الضيق والخشونة والملاسة حتى اختلفت الأصوات لأجل اختلاف هذه الأحوال فكما لا تتشابه صورتان ألبتة فكذلك لا يتشابه صوتان ألبتة، وكما يحصل الامتياز بين الأشخاص بالقوة الباصرة فكذلك يحصل الامتياز بينهم بسبب القوة السامعة فيحصل في الظلمة هذا التمييز ويحصل للأعمى هذا التمييز. وأما ما يتعلق بتحصيل مصالح البدن فهو أن أعظم الأشياء المحتاج إليها في مصلحة البدن هو الأكل وهو ﷻ أعد في الفم أسباب الأكل وهو من وجوه:

النوع[1] **الأول**: أنه تعالى خلق في الفم الأسنان ولها منافع:

الأول: منها ما ذكرنا من أنه مقاطع الأصوات فتحدث الحروف المختلفة بسببها.

والثاني: أنها تكون آلة القطع والكسر والطحن، ثم انظر إلى الحكمة وذلك أن الإنسان في أول ما يتناول الغذاء يحتاج إلى القطع فجعل الأسنان المقدمة حادة عريضة الرؤوس جارية مجرى السكين وجعل الأنياب مستديرة حادة الرؤوس للكسر وجعل الأضراس مسطحة الرؤوس خشنة كالرحى لأجل الطحن، ولو قدرنا كون الأضراس مقدمة وكون الرباعيات مؤخرة لبطلت المصالح والمنافع بأسرها.

والثالث: تكون زينة للوجه وذلك أنه ﷻ زين الفم بالأسنان فبيّض ألوانها ورتب صفوفها وجعلها متناسبة متناسقة كأنها الدر المنظوم، ثم إنه خلق الشفتين وحسّن لونهما وشكلهما [لينطبقا ويسدا منفذه][2] ولتتمَّ بهما مخارج الحروف. ومن لطيف الحكمة أنه تعالى جعل الأذن بلا حجاب ولا باب وخلق وراء اللسان بابين أحدهما الأسنان والثاني الشفتان وفيه تنبيه على أنه يجب أن يكون استماع الكلام أكثر من الاشتغال بالكلام، فإن استماع الكلام يجري مجرى الدواء والاشتغال بالكلام كالداء.

---

(1) النوع زيادة يقتضيها السياق.

(2) [لينطبقا ويسدا منفذه] في الأصل (لينطيقها ويبدأ منفذهما).

والنوع الثاني: مما حصل في الفم من أسباب الأكل وذلك أنه تعالى جعل معدناً للرطوبة الغدية اللعابية فالإنسان إذا وضع الطعام في الفم وطحنه بأسنانه امتزج ذلك المطحون باللعاب الذي في الفم فوصلت آثار تلك الطعوم اللذيذة في الحال كما أنه يصير سبباً لقوة البدن في الاستقبال، ثم هاهنا أنواع من العجائب:

الأول: أن كل من أراد إدارة الرحى بسبب انصباب الماء إليه وضع الرحى في موضع يكون أسفل من مجرى الماء حتى إذا انصب الماء من الأعلى إلى الأسفل حينئذٍ يقوى على إدارة الرحى، والله ﷻ أدار رحى الفم الذي يصعد الماء من أسفل المعدة ليعلم الخلق أن ذلك بسبب الحكمة والقدرة لا بسبب الطبع والخاصية.

والثاني: أن الإنسان قبل أن يضع الطعام في الفم اجتمعت [لديه][1] من تلك الرطوبات بقدر ما يبتل به ذلك الطعام ولو لم تجتمع تلك الرطوبات في هذا الوقت لتعذر على الإنسان مضغ ذلك الطعام وتعسر عليه ابتلاعه، فانظر إلى كمال الحكمة الإلٰهية في الوقتين.

والثالث: أن الإنسان لما احتاج إلى طحن الطعام بالأضراس ومضغه فقد يتقلب أجزاء الطعام مما بين تلك الأضراس فجعل اللسان متحركاً في ذلك الوقت، حتى إن اللسان بحركاته المختلفة يجمع الطعام إلى ما بين الأضراس حتى يتطحن على سبيل الكمال والتمام فسبحان من له الحكمة القاهرة والدلائل الباهرة فهذه إشارة مختصرة إلى أحوال الناس وشرح أحوال هذه الحواس.

ثم هاهنا أنواع آخر من الحكمة والفوائد في الرأس:

الأول: تأمل في وضع الحواس وقوة الحفظ والفكر والذكر في الرأس وذلك لأنها جعلت في الرأس كالمصابيح فوق المنارة ليتمكن الإنسان بسبب ارتفاع هذه الحواس من إدراك الأشياء البعيدة: فما أحسن قول الحكماء: الرأس صومعة الحواس.

الثاني: كان بعضهم يقول عند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ: ما أعجب أمر الشطرنج فإن تلك الرقعة على غاية صغرها تشتمل على أنواع لا نهاية لها من

---

(1) زيادة يقتضيها السياق.

اللعب، فقال عمرﷺ: بل ها هنا ما هو أعجب منه وأغرب وذلك لأن رقعة الوجه أصغر بكثير من رقعة الشطرنج ثم إن كل عضو من أعضاء الوجه لا يتغير عن مكانه، فالعينان أبداً يكونان في ذلك الموضع المعين وكذلك الأنف والأذن والفم. ثم مع ذلك فإنه يحصل فيه التفاوت فإنك لا ترى شخصين في الشرق والغرب يتشابهان من كل الوجوه، فسبحانه ما أعظم شأنه.

واعلم أن التفاوت في الصورة ظاهر قوي فيما بين الآدميين بعدةٍ. فالتفاوت حاصل بين صور الحيوانات الأهلية، إلا أن التفاوت في ما بين الآدميين أكثر.

وأما الحيوانات البرية فالتفاوت فيما بين صورها قليل جداً والسبب فيه أنا ذكرنا أنه لولا اختلاف صور الناس لما ميّز الزوج عن الأجنبي والسيد عن غير السيد ومالك المتاع والدار عن غيره، فكان ذلك يفضي إلى الفساد العظيم فلهذا المعنى اقتضت الحكمة الإلٰهية إظهار التفاوت في صور الآدميين.

وأما الحيوانات الأهلية فقد يتعلق بعض الأعراض بأعيانها من بعض الوجوه إلا أن اشتداد الحاجة إلى معرفتها بأعيانها وأشخاصها ليس كالحاجة إلى معرفة الناس وأعيانها. فلا جرم أظهر الله المخالفة بينها في الصورة إلا أن تلك المخالفة أقلّ من المخالفة بين أشخاص الناس. وأما الحيوانات البرية فلا تتعلق مصلحة ألبتة بمعرفة أعيانها وأشخاصها فلا جرم لم تظهر المخالفة بين صورها وأشكالها إلا في القليل، فسبحان من له في كل شيء حكمة مرعية وأسرار مخفية.

الثالث: قال تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ۝١٩ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ﴾ [الرحمٰن: 19-20] فإن تعجبت من هذه الحالة فانظر إلى وجهك مع صغره فإنه ﷻ وضع فيه أربعة من البحار مختلفة الطبائع والصفات فجعل بحر الأذن مملوأً من الماء المرّ[1]، وبحر العينين مملوأً من الماء المالح، وبحر الفم مملوأً من الماء العذب، وبحر الأنف مملوأً من الماء العفن المتغير، وجعل بين كل واحد من هذه البحار حاجزاً مانعاً وأبقى كل واحد منها على صفته وخاصيته لحكمة بالغة. أما مرارة ماء الأذن فلئلا يدخلها شيء من الحشرات، وأما ملوحة ماء العين فلئلا تتطرق العفونة إلى ذلك الشحم، وأما

---

(1) في المخطوط: (مرأ).

عذوبة بحر الفم فلأجل أن يجد المطعوم على غاية اللذاذة، وأما عفونة بحر الأنف فلأجل أنه جعل مصباً لفضلات الدماغ فسبحانه ما أعظم شأنه.

الرابع: قال الباقر: كل ما خلق الله في العالم الأكبر إلا وخلق نظيره في العالم الأصغر فلهذا قال: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ يعني: إن عجزت عن مطالعة العالم الأكبر فانظر في العالم الأصغر وذلك لأني خلقت في العالم الأكبر شمساً وقمراً ونجوماً، وخلقت في العالم الأصغر مثلها فشمس العالم الأصغر الروح لأن الروح تضيء جسدك كما أن الشمس تضيء العالم وإذا خرجت الروح من جسدك صار جسدك مظلماً كما أن الشمس إذا غربت صار العالم مظلماً. والعقل كالقمر فكما أن القمر يستمد النور من الشمس فكذلك العقل يستمد النور من الروح، وكما أن القمر يزيد ضوؤه تارة وينتقص أخرى فكذلك العقل يزداد قوته تارة وينتقص أخرى، وأمّا النجوم الخمسة السيارة الباقية فنظيرها في البدن الحواس الخمس ونظير الجبال عظامك، ونظير البحار العروق الكبار في البدن ونظير الأودية والأنهار العروق الصغار المتشعبة من تلك العروق الكبار، وكما أنه يحصل في البحار حيتان مضربة فكذلك ترى في بحر فمك لسانك مضطرباً بذكر الحكمة وفي بحر مقلتك ترى حدقتك مضطربة مطالعة العزة، وكما أنك ترى في بعض أجزاء الأرض فيه نباتاً وفي بعضها ليس كذلك فكذلك ترى في بعض أجزاء بدنك شعوراً وفي بعضها ليس كذلك وبالجملة فاختصاص كل عضو بصفة خاصة وخلقة خاصة لا بد وأن يكون بقدرة العزيز العليم.

الخامس: أنه تعالى جمع أكثر المحاسن في الوجه: فجعل أربعة أشياء من أعضاء الوجه ملوناً بلون السواد، جعل موضع النور من الحدقة ملوناً بلون السواد وجعل الأهداب سوداً والحاجبين والشعور سوداً، وجعل أربعة منه أبيض جعل الملتحمة من الحدقة ملوناً بلون البياض وجعل الأسنان بيضاً وجعل الجبهة كالسطح المتخذ من الفضة النقية، وجعل الذقن كالكرة المتخذة من الفضة ثم جعل الخدين على لون حمرة الورد والشفتين على لون حمرة الياقوت، ثم جعل الوجه دائرة تامة على شكل القمر والجبهة نصف دائرة والحاجبين خطين مقوسين وامتداد الأنف كالخط المستقيم، فتأمل في رقعة الوجه وانظر إلى هذه الأنصاف المختلفة وتركيب الحدقة من السواد والبياض فهما لونان في غاية المضادة والمنافرة فجعل النور في وسط الحدقة ثم جعل السواد محيطاً بالنور ثم جعل بياض الأجفان مرة أخرى محيطة بتلك السواد ثم

جعل سواد الحاجبين مرة أخرى محيطاً بذلك البياض ثم جعل بياض الجبهة محيطاً بسواد الحاجبين ثم جعل سواد الشعر مرة أخرى محيطاً بذلك البياض، فتأمل في هذه الصُنع العجيبة والتركيبات البديعة ليشهد عقلك وحسك وروحك وفكرك وذكرك وجميع أجزائك وأبعاضك على جلال قدرة الخالق وكمال حكمته سبحانه وتعالى عمّا يقول الظالمون علواً كبيراً.

السادس: قال صلوات الله وسلامه عليه: «**اطلبوا الحوائج عند حسان الوجوه**»[1] فجعل حسن الصورة الظاهرة دليلاً على حسن السريرة في الأعم الأكثر، منهم من ذكر فيه وجوهاً أخرى:

الأول: كأنه قال ﷺ: «**من حسّن الله خلقه وجب عليه أن يجعل شكر هذه النعمة حسن الفعل**».

الثاني: أنه أراد بحسن الوجه الدين وذلك لأن العبد إنما يتوجه إلى ربه بدينه والدين عند الله الإسلام، فإذا رفع المحتاج حاجته إلى من حسن دينه لم يرض من دينه أن يرده غير مقضي الحاجة إلا إذا كان عاجزاً عن قضائها.

والثالث: أنه أراد بحسن الوجه المتهجد بالليل بدليل قوله ﷺ: «**من كثُرت صلاته بالليل حسُن وجهه بالنهار**»[2].

السابع: روي أنه صلوات الله عليه كان يقول في سجدته: «**سجدت وجهي للذي خلقه وشق سمعه وبصره**»[3] وأيضاً قد يعبر بالوجه عن الذات قال تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ وقال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ وقال ﷺ: «**وجه دينكم الصلاة**» ويقال للعربي: يا وجه العرب، ويقال للطريق المفضي إلى حصول المطلوب: هذا وجه هذا الأمر. وقال الخليل ﷺ: وجهت وجهي للذي فطر السمٰوات والأرض. وكل هذه الاستعلامات يدل على أنهم يجعلون الوجه اسماً لكل ذلك الشيء وتارة

---

(1) هو حديث باطل أورده ابن الجوزي في الموضوعات (2/ 109 ـ 111) وانظر التعليق على مسند الشهاب (1/ 252 ـ 258).

(2) هو حديث باطل أورده ابن الجوزي في الموضوعات (2/ 109-111).

(3) في (أ) خلقني وشق سمعي وبصري والحديث رواه مسلم (771) من حديث علي والنسائي (2/ 226) من حديث جابر.

لأشرف أجزائه وهذا يدل على أن أشرف أجزاء بدن الإنسان إنما هو الوجه، والأمر في الحقيقة كذلك وذلك لأن العين المبصرة للاعتبار فيه والأذن السامعة للأسرار فيه واللسان الناطقة بذكر الملك الجبار (فيه)[1] فلهذا قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ: سبحان من بصّر بشحم وأسمع بعظم وأنطق بلحم، ولا شك أن مصالح هذا العالم لا تتم إلا بهذه الحواس أما مصالح العالم الروحاني والعتبات القدسية لا تتم إلا بالفكر والذكر وهما لا تتمان إلا بالدماغ، واللوح والقلم هناك والأنوار والظلمة هناك فلهذا السبب كان رسول الله ﷺ لا يأكل الثوم لأنه كان مضراً بالدماغ وكان يحب الطيب لأنه يقوي الدماغ، وكل المناصب العالية والدرجات الشريفة كان مبيناً على مصالح الدماغ. ولنكتف بهذا القدر من آثار حكمة الله تعالى في خلق الدماغ والرأس والحواس، وأما ما يتعلق بالقلب فإنّا نُفرد له فصلاً.

النوع الثاني: في شرح آثار حكمة الله في خلق الإنسان وفيه وجوه:

[الوجه][2] الأول: أن تقول تفكّر في خلق الجنين في الرحم فإنه لا حيلة له في طلب الغذاء فصرف الله تعالى إليه من دم أمه ما يكفيه ثم لا يزال ذلك غذاء له إلى أن يستحكم بدنه ويقوى جلده على مباشرة الهواء وحينئذٍ يهيج الطلق بالأم وينفصل الولد عن الأم، فبعد ذلك يصرف الله ذلك الدم إلى ثدي الأم ويحصل ضرب[3] آخر من الغذاء أوفق له مما كان وهو اللبن الخالص، **ثم هاهنا لطيفتان:**

اللطيفة الأولى: أنه ﷻ لما غذاك حين كنت في بطن أمك بالدم فلا جرم ما أوصل إليك هذا الغذاء من طريق الفم بل من طريق السرة، والحكمة فيه أن الفم موضع الذكر والتسبيح والتهليل والدم نجس ولا يليق بالحكمة تلطيخ الفم الذي هو موضع الذكر والتسبيح والتهليل بالدم النجس، والإشارة فيه أن الذي لم يصر بعد محل الذكر بل ليس إلا مجرد صلاحيته أن يصير محل الذكر فالله تعالى نزّهه عن التلطيخ بالدم، فأن ننزه وقد صار هذا الفم محل التسبيح والتهليل منذ خمسين سنة كان أولى فلا يجوز أن يلطخه بأكل الميتة وهي الغيبة والنميمة وأكل الحرام.

---

(1) فيه زيادة من (ب).

(2) زيادة يقتضيها السياق.

(3) (ضرب) في الأصل (حزب).

اللطيفة الثانية: قالوا فرّغ خاطرك عن طلب الرزق وتيقن أنه تعالى إذا سدّ عليك طريقاً فتح لك طريقاً آخر أجود من الأول، انظر إلى الجنين أنه كان يأتيه غذاؤه وهو الدم من طريق واحد وهو السّرّة فلما خرج من بطن الأم وانقطع ذلك الطريق انفتح له طريقان آخران وهما الثديان فخرج منهما غذاء طاهر نظيف لطيف يخرج من بين فرث ودم ليتعلم أنه مهما انسد طريق واحد فتح الله تعالى له طريقين أحسن وأنفع من الأول، ثم إذا تم الحولان وتمت مدة الرضاع انقطع هذان الطريقان ولكن تنفتح طرق أربع طعامان وشرابان: أما الطعامان فالنبات والحيوان وأما الشرابان فالمياه والألبان، ثم إذا مات الإنسان انقطعت هذه الطرق الأربعة ولكنه تعالى بفضله ورحمته يفتح عليك الأبواب الثمانية من الجنة لتدخل الجنة من أيها شئت بفضله ورحمته.

الوجه الثاني: في بيان الحكمة أنه ﷻ خلقك في أحسن تقويم وذلك أنه سبحانه خلق المخلوقات في عالم الأجسام على أربعة أصناف: قوائم كالأشجار وراكع كالبهائم وساجد كالحيات والحيتان وجالس كالجبال، ثم إنه تعالى خلق الآدمي بحيث يكون تارة قائماً وتارة راكعاً وتارة ساجداً وتارة قاعداً ثم إنه يذكر الله تعالى على جميع هذه الأحوال كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ ثم إنه انضم إلى هذا الذكر [التفكر][1] فقال: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فما أعظم هذه الحالة وأجلّ هذه الدرجة، وقد تذكر الحكمة على وجه آخر فيقال: النبات رؤوسها في عمق الأرض وأرجلها صاعدة في السماء منكبشة كأنها وضعت قمة رأسها على الأرض، وأمّا الإنسان فإنه على العكس من ذلك فإن رجلاه على الأرض ورأسه في السماء، والحيوانات متوسطة في هاتين الحالتين لا منكوسة كالنبات ولا منتصبة كالإنسان والسبب فيه عند أهل الطبائع أن النبات جسماني محض فلا جرم كانت رؤوسها نحو الأرض والإنسان روحاني محض بالنسبة إلى سكان الأرض فلا جرم كانت رؤوسها تلي: عالم الروحانيات وهو عالم السمٰوات ومساكن الملائكة، وأما الحيوانات فهي متوسطة في هاتين الحالتين في الجسمانية والروحانية فلا جرم كانت متوسطة بين الانتصاب والنكس.

واعلم أن هذا الكلام يوهم أن السبب لهذه الأحوال إنما هو الطبع والخاصية

---

(1) (التفكر) زيادة يقتضيها السياق.

إلا أنه سبحانه وتعالى أبطل هذا الوهم وأزال هذا الخيال فيقال: أيها الإنسان ما دام رأسك منتصباً كنت في مقام التكبر وفي متابعة إبليس حيث قال تعالى: ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فإذا وضعت رأسك على الأرض فهناك تقرب من الحضرة الصمدية كما قال تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ لتعرف أن هذا ليس بالطبع بل بفضل الله وبرحمته.

الوجه الثالث: أن بدنك يشبه الدار الكاملة التي بنيت وأكملت بيوتها وخزانتها وفتحت أبوابها وأعد فيها كل ما يحتاج إليه صاحب المنزل، فالرأس كالغرفة في أعلى الدار والثقب التي في الرأس كالروزن في كل غرفة الدار، ووسط دماغه كالأبواب في الدار والفم كباب الدار والأنف كالطاق التي فوق باب الدار والشفتان كمصراعي الباب والأسنان كالبوابين واللسان كالحاجب والظهر كالجدار القوي الذي هو حصن الدار والوجه كصدر الدار والرئة التي هي الحاوية للنفس البارد كالنبت الصيفي، وجريان النفس فيها كالهواء الذي يجري في البيت الصيفي، والقلب مع حرارته الغريزية كالبيت الشتوي والكبد كالبيت للشراب، والعروق التي يجري فيها الدم كمسالك الدار والطحال بما فيه من السواد كالحواني التي بقي فيها الدرديات والمثانة بما فيها من البول كبيت الستر والسبيلان في أسفل البدن كالمواضع التي يخرج منها القاذورات من الدار والرجلان كالمركوب المطيع والعظام التي بناء الجسد عليها كالخشب التي عليها بناء الدار، واللحم في خلال العظم كالطين والعصب الذي يربط بعض العظام ببعض كالرسن الذي يربط بعض الأشياء ببعض، والتجويفات في جوف العظام كالصناديق في الدار والمخ فيها كالجواهر والأمتعة المخزونة في الصناديق، فسبحان من هيأ في بيوت هذه الدار، ثم إن الروح في هذه الدار كالملك المتصرف فيبصر بالعينين ويسمع بالأذنين ويشم بالمنخرين ويذوق باللسان وينطق باللسان، ويمس باليدين ويعمل الصنائع بالأصابع ويمشي بالرجلين ويبرك على الركبتين ويقعد على الإليتين وينام على الجنبين ويستند بالظهر ويحمل الأثقال على الكتفين ويتخيل بمقدم الدماغ ويتفكر بوسط الدماغ ويتذكر بمؤخر الدماغ ويصوّت بالحنجرة ويستنشق الهواء بالخيشوم ويمضغ بالأسنان ويبتلع بالمري، والمقصود من جميع هذه الأحوال أن يكون في حضرة الربوبية مشتغلاً بالعبودية كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56] ثم إنه تعالى فوض تدبير هذه المملكة إلى ثلاثة من الرؤساء:

أولها: الشهوة ومسكنها في الكبد وجريانها مع الدم في العروق الساكتة ولهذا المعنى قال: «**إن الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم**» وذلك لأن القوة الشهوانية

لا تسري إلا من الكبد مع الدم في العروق.

وثانيها: القوة العصبية ومسكنها القلب وهي تجري في العروق المتحركة إلى جميع أطراف البدن.

وثالثها: القوة النفسانية المدبرة ومسكنها الدماغ، وهي تجري في الأعصاب إلى جميع أطراف البدن. وهؤلاء الرؤساء الثلاثة ليسوا أشياء متباينة مستقلة بأنفسها بل هي الفروع المتفرعة من أصل واحد وكالأغصان النابتة من شجرة واحدة وكالمنبع الذي تنشق منه ثلاثة أنهار وكالأب الذي يتولد منه أولاد ثلاثة وكرجل يعمل أعمالاً ثلاثة فتسمى بثلاثة أسماء الحداد والصانع والبناء مثلاً، فهؤلاء الثلاثة كملوك الأصراف الذين ولاّهم الملك الأعظم فالشهوة تشبه أفعالها أفعال النساء والصبيان والحمقى من الناس إذا لم يؤدبهم آباؤهم وأزواجهم، والغضب تشبه أفعاله أفعال العيارين والقتالين إذا لم يؤدبهم الملوك، والقوة المدبرة تشبه أفعالها أفعال الحكماء والفقهاء وأهل الخير والصلاح.

الوجه الرابع: كأنه ﷻ يقول: عبدي أردت أن أخرجك إلى الدنيا وأعرضك على والديك وعلى أهل الدنيا فلما أردت ذلك زينتك كما تزين الأم المشفقة ولدها حين تريد عرضه على الناس، فجعلت جبهتك كالسطح المتخذ من الفضة النقية لتكون محل السجود وأظهرت في رقعة وجهك أنواع النقوش العجيبة وأعطيتك الحاجب المقوس والعين الملوزة والخد المورد وجعلت وجهك كالقمر ثم جعلت العينين للاهتداء والأذنين للإصغاء والفم للاغتذاء والمعدة للهضم والكبد للإتمام والعروق لتكون كالأنهار والمنافذ لدفع الفضول واليدين للأعمال والرجلين للمشي، وإنما فعلت بك كل هذه الأعمال لتكون عند خروجك إلى الدنيا مبرءاً من النقصان فإذا برأتك عن النقصان عندما أخرجتك إلى الدنيا مع أنها سجن ودار محنة وموضع ممر لا مسكن مقر فاعرف كيف تكون عنايتي بك وبتحسين أحوالك إذا أخرجتك من القبر إلى محفل القيامة.

الوجه الخامس: أنه ﷻ خلق اليدين آلة للطلب والرجلين آلة للهرب، ثم إنه تعالى خلق اليد مركبة من أربع مفاصل محسوسة العضد والساعد والكف والأصابع فإن أراد الإنسان جعل هذه العظام الأربعة بمنزلة العظم الواحد قدر عليه فيمد اليد ويجعلها كالرمح وإن أراد أن يأخذ جسماً مستديراً تحت إبطه جعل اليد كالدائرة المحيطة لذلك

الشيء لأجل أنه حصل في اليد هذه المفاصل، ثم إنه ﷻ جعل الأصابع خمساً وقسم كل أصبع بثلاث أنامل ووضع الأربع في جانب والإبهام في جانب آخر وبهذا الترتيب صلحت اليد للأعمال الكثيرة فإن بسطها كان كالطبق يضع عليها ما يريد، وإن جمعها كانت آلة للضرب وإن ضمّها ضمّاً غير تام كانت مقرفة له، وإن ضمّ أحدهما إلى الآخر صار المجموع كالقدح الكبير، ثم خلق الأظفار على رؤوسها زينة للأنامل وعماداً لها من ورائها حتى تمكنه أن يلتقط بالأصابع الأشياء الدقيقة ولتمكنه أيضاً أن يحك بدنه عند الحاجة. ثم تأمل في هذا المقام فإن الظفر الذي هو أخس الأعضاء لو لم يحصل للإنسان لصار أعجز الخلق عند الحاجة إلى الحك فإن أحداً لا يقوم مقامه في حك كل بدنه، ثم من عجائب هذا الباب أنه إذا احتاج موضع معين من بدنه فإنه لا يخطىء فيه ألبتة ولو في وقت النوم والغفلة ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحك إلا بعد نعت طويل.

ولنذكر منافع اليدين من وجه آخر فنقول: من المعلوم أن مصالح الإنسان تنقسم إلى قسمين: إلى روحانية وإلى جسمانية، أما المصالح الروحانية فلليد فيها أعظم أنواع المعونة وذلك لأن عقل الإنسان الواحد لا يستقل باستنباط جميع العلوم المحتاج إليها إذ لا بد من استعانة بعض العقول بالبعض وذلك لا يتم إلا بأن يكتب المتقدم ما حصله من العلوم، والكتابة لا تحصل إلّا باليد وأما [المصالح][1] الجسمانية فهي جلب المنافع ودفع المضار، أما جلب النفع فلليد فيه أعظم أنواع المعونة وذلك لأن الإنسان يتخذ بيديه آلات يعيد بها ما في البر والبحر والهواء من الحيوان ويعمل السفن فيقطع بها البحار والمسافة البعيدة ويتخذ آلات يخرج منها أصوات لذيذة نافعة للبدن وللروح، ويبني بيديه المساكن الحسنة وتنسج الثياب الحسنة ويتخذ الأطعمة الطيبة اللذيذة. ومعلوم أن كل هذه الأعمال لا تتهيأ إلا باليدين وتارة تنسج الثياب المنقوشة بعجائب النفوس وفنون الألوان والأصباغ فيصير لونه أحسن من لون الطاووس وتارة يجعل لنفسه من الذوئب ما يشبه بذوات الأعراف، وتارة يتخذ لنفسه من أصناف الحلي ما يصير أحسن من ذوات الأطواق. وأما دفع الضرر فهو على قسمين: تارة بالجهاد وأخرى بالتحرز، أما الجهاد فإنما يكون بالسلاح فهو يمسك بيديه ما هو أعظم وأبلغ من القرون كالرمح وما هو أقطع من الأنياب كالسيف وما هو

(1) المصالح في الأصل مصالح.

أبلغ في النجش من المخالب كالخنجر وما هو أشد رضًا من الحافر (كالطوب)[1] والأحجار ،فإذا تأملت علمت أن اليد مع الرمح قرن ومع السيف ناب ومع الإبرة [جمة][2] ومع الخنجر مخلب ،وأما التحرز فإما أن يكون بالهرب أو بالتحصن، أما الهرب فإنه يذلل النفس بيديه فيعلوه حتى يصير سرعة ركض الفرس له فتدرك به إذا طلب ويعجز طالبه إذا هرب وأما التحصن فإن يعمل بيده ما هو أفضل مما حصلت للحيوانات من الجلود الغليظة والأظلاف والأصداف وذلك مثل الترس والدروع وأنواع السلاح ويتخذ بيديه القلاع والحصون أحسن مما لسائر الحيوانات وكل هذه الأعمال إنما يتأتى باليدين، ثم إنهما يخدمان جميع البدن خدمة عظيمة فتبعد أنواع الآفات والقاذورات من كل البدن ويجران جميع المنافع إليها ولو خاضت العقول أدواراً وأعصاراً في معرفة آثار حكمة الله تعالى في خلق اليدين لاعترفت بعد التوغل التام بالعجز والقصور. واعلم أن الاستقصاء في بيان آثار حكمة الله في خلق الإنسان مما لا يمكن شرحه في هذا الكتاب. ونِعمَ ما قال الشيخ أبو حامد الغزالي في كتاب الإحياء، فقال: والعجب كل العجب ممن يرى صورة إنسان على حائط فيستحسنه ويصرف جميع همته إلى النقاش [في أنه][3] كيف نقشه وكيف قدر عليه مع أنه يعلم أن ذلك النقش إنما تم وكمل بالصنع بالقلم والحائط واليدين والقدرة والعلم والإرادة، وشيء من ذلك ليس من فعل النقاش ولا من خلقه بل كل ذلك من خلق الله تعالى وإنما غاية فعل هذا النقاش الجمع بين الصنع بالقلم وبين الحائط على ترتيب مخصوص فإذا كان هذا القدر من العمل سبباً للاعتراف لذلك النقاش بالعلم والحكمة فبأن نستدل بظهور تركيب الإنسان وتخليقه على جلالة علم الخالق ونهاية قدرته وحكمته كان أولى.

الوجه السادس: انظر مع كمال قدرته إلى تمام حكمته وذلك لأن الجنين حينما يكون في الرحم يكون بعض أعضائه مضموماً إلى البعض ويكون مجموعه كالكرة الموضوعة في كيس الرحم، وذلك لأنه قد يكون ضمَّ فخذيه إلى صدره ووضع راحتيه إلى ركبتيه ووضع رأسه على ركبتيه فتكون عيناه على ظهر كفيه ويكون أنفه بين الركبتين ويكون جالساً على رجليه ومعتمداً على عقيبيه كالشخص المتفكر المغموم المهموم المنتظر لورود الأمر عليه ويكون وجهه إلى ظهر أمه حماية للقلب، وهذه

(1) (كالطوب) في الأصل (كالثوب).
(2) (جمة) كذا في المخطوط.
(3) في المخطوط (فإنه).

الجلسة أيضاً أوفق للانقلاب ثم إذا صار الجنين كبيراً وضاق عليه الموضع فإنه ﷻ يلهمه إلى كيفية الخروج فينتكس ويعين على الانقلاب ثقل الأعالي في الجنين. ثم في ذلك الوقت ينفتح الرحم الانفتاح الذي لا يمكن أن يتخيل في مثله مثله، ولا بد من انفصال بعض المفاصل العظيمة وذلك مدد وعناية من الله تعالى في ذلك الوقت يعجز عن معرفة كيفيتها العقول البشرية ثم ها هنا أحوال عجيبة:

الأول: أن الجنين كان في البطن أيده الحق ﷻ بالإلهام حتى عرف أن مصلحته عند الخروج في أن ينقلب وينتكس، ثم بعد الانفصال من البطن والخروج إلى الدنيا لا يهتدي ألبتة إلى شيء من مصالحه، وذلك لأن عند كونه في البطن ليس هناك من يعينه على شيء من مصالحه ولما خرج إلى الدنيا فها هنا له من يعينه على رعاية مصالحه فلا جرم انقطعت تلك الهداية وهذا يدل على أن الإنسان كلما كان أشد عجزاً وقصوراً كانت عناية الله به أتم، ولا شك أن عجز الخلق في موقف القيامة أشد وأكمل فنرجو من الله تعالى أن تكون عنايته بهم في ذلك الوقت أتم.

الثاني: البيضة إذا انفصلت عن الدجاجة خرج الفرخ عنها وغذت والتقطت من الحب ما ينفعها واحترزت عما يؤذيها وفرقت بين أمها المشغفة بها وبين الهرة الطالبة لإيذائها، أما الإنسان فإنه حال انفصاله عن الأم لا يميز بين النافع والضار والصديق والعدو فكان في هذا الوقت أكثر جهالة من الفرخ عند خروجه عن قشر البيضة، ثم إن الأمر لو كان مستمراً على قانون الطبيعة والخاصية وجب أن يكون الفرخ لمّا كان أذكى وأكثر تمييزاً في مبدأ الأمر أن يكون الإنسان[1] في مبدأ الأمر أكثر تمييزاً من الفرخ أو أن يكون الفرخ أذكى وأكثر تمييزاً من الإنسان عند المنتهى والكمال، لكنه تعالى قلب هذه القضية فجعل من كان كثير التمييز في أول الأمر قليل التمييز عند الكمال والغاية، وجعل الإنسان الذي هو أقل الحيوانات تمييزاً في أول الأمر أكثر معرفة وهداية وعقلاً ليعرف أن كمال ذلك بحسب القدرة والحكمة والعناية لا بحسب الطبع والعلة والخاصية.

الثالث: أن الصبي بعد الخروج من بطن الأم لما احتاج إلى الغذاء فانظر كيف هداه الله تعالى إلى التقام الثدي، ولما كان بدنه نحيفاً لا يحتمل الأغذية الكثيفة انظر

---

(1) أن يكون الإنسان في الأصل: أن يكون أكثر تمييزاً من الإنسان.

كيف دبَّر له في حلب اللبن اللطيف، ثم خلق الثديين وجمع فيهما اللبن اللطيف وأنبت على رأس الثديين حلمتين على قدر ما تنطبق عليه فم الصبي، ثم جعل في تلك الحلمة ثقباً ضيقة جداً حتى لا يخرج منه اللبن إلا بعد المص، فإن الطفل لا يقدر على الابتلاع أن لو خرج من الثدي لبناً كثيراً في فمه بالمص، ثم انظر إلى عناية لطف الله تعالى كيف هداه للامتصاص حتى يستخرج من ذلك المضيق اللبن الكثير عند شدة الجوع على الرفق ثم إنه سبحانه وتعالى أخَّر خلق الأسنان إلى تمام الحولين لأنه في الحولين لا يغتذي إلا باللبن وهو مستغن عن السنّ وإذا صار كبيراً ولم يوافقه اللبن واحتاج إلى الطعام الغليظ فيحتاج إلى المضغ والطحن حينئذ فلا جرم ينبت له الأسنان عند حدوث الحاجة لا قبلها ولا بعدها، فتبارك الله أحسن الخالقين وأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين ورب الخلائق أجمعين.

odeikandl.com

الفصل السادس:(1) في شرح أحوال الإنسان من وقت ولادته إلى وقت موته من العجائب

ذهب أكثر العقلاء إلى أن أشرف أعضاء البدن هو القلب وهو الرئيس المطلق لسائر الأعضاء وهو المخاطب في الحقيقة وهو موضع التمييز والاختيار، أما سائر الأعضاء فمسخرة له والدليل عليه القرآن والخبر والمعقول.

الحجة الأولى: قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وقال في سورة الشعراء: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ فدلت هاتان الآيتان بصريحهما على أن التنزيل والوحي كان على القلب، فوجب أن يكون المخاطب والمكلف هو القلب.

الحجة الثانية: قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ والآية دالة بصريحها على أن الذكرى والفهم إنما يحصل بالقلب وتأويل إلقاء السمع الجدّ في الاستماع حتى يصير سمعه كالنّبي الذي ألقى إليه الكلام(2) بلا إضراب فيه. ومن الناس من قال أن [أو](3) في الآية بمعنى الواو وذلك لأن الذكر لا بد فيه من مجموع الأمرين ولا بد فيه من حضور القلب ولا بد فيه من إلقاء السمع، لأن القلب عبارة عن محل إدراك الحقائق. وإلقاء السمع عبارة عن الجد والاجتهاد في تحصيل تلك الإدراكات ومن المعلوم أنه لا بدّ من الأمرين معاً فكان أو ها هنا بمعنى الواو.

والجواب: أن ما ذكرتم محتمل ولكن يمكن أيضاً إجراء الآية على ظاهرها

---

(1) السادس. في الأصل الخامس وهو سهو من الناسخ.
(2) (كالنبي) في الأصل (كالشيء) (إليه الكلام) في الأصل (إلا الكلام).
(3) [أو] زيادة من (ب).

وذلك لأن القوى العقلية قسمان: منها ما يكون في غاية الكمال والصفاء ويكون مخالفاً لسائر العقول بالكمية والكيفية، أما الكمية فلأن تركب تلك المقدمات البدهية والحسية والتجريبية لها أكثر وأما بالكيفية فلأن تركب تلك المقدمات على وجه مساق إلى النتائج الخفية ومثل هذه القوة العقلية يستغنى في معرفة حقائق الأشياء عن التعلم والاستعانة بالغير إلا أن مثل هذا يكون في غاية الندرة.

وأما القسم الثاني: وهو الذي لا يكون كذلك فهو يحتاج في اكتساب العلوم النظرية إلى التعلم والاستعانة بالغير والتمسك بالقانون الصناعي الذي يعصمه عن الخلل والزلل. إذا عرفت هذا فقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ إشارة إلى القسم الأول وإنما ذكر القلب بلفظ التنكير ليدل ذلك على [الكمال][1] التام بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ [أي على حياة][2] عظيمة طويلة المدة فكذا ها هنا قوله لمن كان قلب كامل في قوة الإدراك عظيم الدرجة في الاستعداد بمعرفة الحقائق وأما قوله: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ فهو إشارة إلى القسم الثاني الذي يفتقر إلى الكشف والاستعانة بالغير وهذا من الأسرار الذي عليها بناء أصل العلم المنطقي وقد لاح بتوفيق الله في هذه الآية. فلما كان القسم الأول نادراً جداً وكان الغالب هو القسم الثاني لا جرم أمر الكل في أكثر الآيات بالطلب والاكتساب فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الحج: 46] فإن قوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ حث على الطلب والجهد في الكسب وقال صاحب المنطق أن القسم الأول وإن كان غنياً عن الاستعانة بالمنطق إلا أنه نادر جداً والغلبة للقسم الثاني وكلهم محتاجون إلى المنطق فانظر إلى هذه الأسرار العميقة كيف تجدها مدرجة في ألفاظ القرآن.

الحجة الثالثة: الآيات الدالة على أن استحقاق الجزاء ليس إلّا على ما في القلب من المساعي فقال تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: 37] ثم بيّن تعالى في آية أخرى أن التقوى بالقلب فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ

(1) في المخطوط «كمال».
(2) [أي على حياة] زيادة من (ب).

لِلتَّقْوَىٰ﴾ وقال تعالى: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾.

الحجة الرابعة: قوله تعالى حكاية عن أهل النار: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ وستعرف أن العقل في القلب وأن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً، ومعلوم أن السمع والبصر لا فائدة فيهما إلا ما يؤديانه إلى القلب فكان السؤال عنهما في الحقيقة سؤالاً عن القلب، ونظيره قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ﴾ ومعلوم أن خيانة الأعين لا تكون إلا بما يضمره القلب عند التحديق والنظر.

الحجة الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ فخصّ هذه الثلاثة بإلزام الحجة بسببها واستدعاء الشكر عليها، وقد قلنا أنه لا طائل في السمع والإبصار إلا بما يؤديانه إلى القلب ليكون القلب هو القاضي فيه والحاكم عليه.

الحجة السادسة: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَيْءٍ﴾ فجعل هذه الثلاثة تمام ما ألزمهم من حجته، والمقصود من ذلك هو الفؤاد القاضي فيما يؤدي إليه السمع والبصر.

الحجة السابعة: قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ فجعل العذاب لازماً لهذه الثلاثة ونظيره قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ وجه الاستدلال بهذه الآية أن المقصود من هذه الآية بيان أنه لا علم لهم أصلاً، ولو ثبت العلم في غير القلب كثباته في القلب لم يتم الغرض.

الحجة الثامنة: أنه تعالى ذكر الإيمان في القرآن إضافة إلى القلب فقال تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ وقال تعالى: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ فثبت أن محل هذه المعارف لهم القلب فإذا كان كذلك كان محل الإرادات هو القلب لأن الإرادة مشروطة بالعلم، وإذا كان محل العلم والإرادة هو القلب كان الفاعل هو القلب.

الحجة التاسعة: إن محل العقل هو القلب وإذا كان كذلك كان المكلف هو القلب. إنما قلنا أن محل العقل هو القلب لقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الحج:46] وقوله: ﴿قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: 37] أي عقل أطلق على العقل اسم القلب لأن القلب محل العقل. وأيضاً إنه تعالى أضاف أضداد العلم إلى القلب فقال: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾، ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾، ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾، ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾، ﴿لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ فدلت هذه الآيات على أن موضع الجهل والغفل هو القلب فوجب أيضاً أن يكون موضع العقل والفهم هو القلب.

وأما الخبر: فما روى النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**»[1]. وهذا تصريح بأن الفاعل هو القلب وباقي الأعضاء تبع له. وروي أن أسامة لما قتل الكافر الذي قال: لا إله إلا الله فقال ﷺ: «**لم قتلته**» فقال: لأنه قال هذه الكلمة عن الخوف فقال ﷺ: «**هلا شققت عن قلبه**»[2]. وهذا يدل على أن محل المعرفة هو القلب وكان ﷺ يقول: «**يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبي على دينك**»[3] وهذا يدل على المقصود.

وأما المعقول: فاعلم أن هذه المسألة مما عظم اختلاف الفلاسفة فيها فزعم أرسطوطاليس أن النفس واحدة ولها أفعال ثلاثة: الفكر والغضب والشهوة فهذه صفات ثلاثة لجوهر واحد وهو النفس، والمتعلق الأول للنفس هو القلب ومنها تتعدى القوى النفسانية إلى سائر الأعضاء، وزعم بقراط وأفلاطون وجالينوس أنها نفوس ثلاثة كل واحدة منها مستقل بنفسه وكل واحدة منها عضو على حدة فمعدن النفس المفكرة هو الدماغ ومعدن النفس الغضبية هو القلب ومعدن النفس الشهوانية هو الكبد.

---

(1) هو جزء من حديث النعمان بن بشير عند البخاري «52 و2051» ومسلم «1599» وغيرهما.

(2) رواه مسلم (96) وغيره من حديث أسامة بن زيد.

(3) رواه ابن ماجه «199» وابن حيان (2419 موارد) والحاكم (258) من حديث النواس بن سمعان وهو حديث صحيح.

واعلم أن القرآن والأحاديث يطابقان[1] لقول أرسطاطاليس ونحن نورد في هذا المقام هذه المسألة على سبيل الاستقصاء، فنقول: إثبات صحة ما ذهب إليه أرسطاطاليس يتوقف على إثبات «أمرين»[2] أحدهما: بيان أن النفس واحدة، والثاني: بيان أن العضو الرئيس على الإطلاق واحد وهو القلب.

أما المقام الأول وهو بيان أن النفس واحدة فنحن ها هنا بين مقام إما أن ندعي البداهة وإما أن ندعي الاستدلال، أما دعوى البداهة فهو أن المراد من النفس ما إليه يشير كل أحد إلى ذاته الخاصة بقوله: أنا، وكل يعلم بالضرورة أنه إذا أشار إلى ذاته الخاصة بقوله: أنا فإن ذلك المشار أحد غير متعدد، فإن قيل لم لا يجوز أن لا يكون المشار إليه بقوله: أنا، وإن كان واحداً إلا أن ذلك الواحد يكون مركباً من ثلاثة أشياء وهي: القوة المفكرة والغضبيّة والشهوانية؟ والجواب هذا باطل لأن بداهة عقلي حاكمة بأني اشتهيت وتفكرت وبداهة عقلي حاكمة بأني إذا قلت أنا اشتهيت أنا أتفكر أنا أغضب، فموضوع هذه القضايا الثلاثة شيء واحد والتعدد إنما وقع في المحمول كما إني إذا قلت هذا الجسم حار أسود يابس فالموضوع واحد والتعدد في الحمولات وإذا كان هذا معلوماً بالضرورة علمنا أن الجوهر واحد في الذات متعدد بالصفات، **وأما طريق الاستدلال: فيدل على قولنا وجوه:**

الحجة الأولى: أن الغضب حالة نفسانية يحدث عند دفع المنافي، والشهوة حالة نفسانية تتولد عند طلب الملائم، ودفع المنافي وطلب الملائم مشروط بالشعور بكون الشيء ملائماً ومنافياً، فالقوة الغضبية التي هي قوة دافعة للمنافي إن لم يكن لها شعور بكونه منافياً امتنع كونها دافعة للمنافي على سبيل الاختيار والقصد لأن القصد إلى الدفع والحدث مشروط لا محالة بالشعور بالشيء، والشيء المحكوم عليه بكونه دافعاً للمنافي على سبيل الاختيار لا بد وأن يكون له شعور بكونه منافياً، فالإدراك والغضب صفتان من صفات شيء واحد وكذلك القول في الشهوة فثبت بهذا البرهان القاطع أن التفكر والغضب والشهوة صفات ثلاثة لذات واحدة [لا أنّها][3] صفات متباينة.

(1) يطابقان في (ب) مطابقان.
(2) «أمرين» زيادة يقتضيها السياق.
(3) [لا أنها] (في الأصل) لأنها.

الحجة الثانية: أنا [لو][1] فرضنا مبدأين يكون كل واحد منهما مستقلاً بفعله الخاص امتنع أن يكون اشتغال أحدهما بفعله الخاص به مانعاً للآخر من الاشتغال من فعله الخاص بذلك الآخر وإذا ثبت هذا فلو كانت القوة المفكرة مبدءًا مستقلاً بنفسها وكذا القوة الشهوانية والغضبيّة، وجب أن لا يكون اشتغال القوة بفعلها مانعاً للقوة الشهوانية من الاشتغال بفعلها ولا بالعكس[2] لكن هذا باطل فإن اشتغال الإنسان بالشهوانية والصبابة إليها يمنعه من الاشتغال من الغضب والانصباب إليه فعلمنا أن هذه الأمور الثالثة ليس مبادئ مستقلة بأنفسها بل هي صفات لجوهر واحد فلا جرم كان اشتغال ذلك الجوهر بأحد هذه الأفعال مانعاً عن الاشتغال بالفعل الآخر.

الحجة الثالثة: أنا إذا أدركنا شيئاً فقد يكون الإدراك سبباً لحصول الشهوة وقد يكون سبباً لحصول الغضب، فلو كان الجوهر المدرك مغايراً للجوهر الذي يغضب وللجوهر الذي يشتهي فحين ما أدرك صاحب الإدراك لم يكن لهذا الإدراك أثر ولا خبر عند صاحب الشهوة والغضب فوجب أن لا يترتب على ذلك الإدراك لا حصول الغضب ولا حصول الشهوة، وحيث حصل هذا الترتيب علمنا أن صاحب الإدراك بعينه هو صاحب الشهوة وهو صاحب الغضب هذا جملة ما يحتج به، واحتج[3] من قالوا بالنفوس الثلاثة بأن قالوا: إنّا رأينا النفس الشهواني حاصل في النبات بدون النفس الغضبية ورأينا النفس الغضبية حاصل في الحيوان بدون النفس الناطقة، ثم رأينا هذه الآثار الثلاثة حاصلة في الإنسان علمنا أن كل واحدة من هذه الثلاثة جوهر مستقل بنفسه متفرد بذاته. والجواب ثبت في أصل المعقولات أن الماهيات المختلفة يجوز اشتراكها في آثار متساوية وإذا ثبت هذا فنقول: من الجائز أن يكون النفس الإنسانية متساوية للنفس النباتية في أفعال التغذي والنمو، وإن كانتا مختلفتين في الماهية ومن الجائز أن يكون النفس الإنسانية متساوية للنفس البهيمية في فعل الغضب وإن كانتا مختلفتين في الماهية وعلى هذا يكون جوهر النفس الإنسانية واحدة بالذات إلا أنها مبدأ لأفعال ثلاثة.

أحدها: النطق ولا يشاركها فيه سائر النفوس.

(1) (لو) زيادة يقتضيها السياق.
(2) ولا بالعكس في المخطوط لا فالعكس.
(3) (واحتج) في الأصل (واحتجوا).

وثانيها: الغضب ويشاركها فيه البهيمة فقط.

وثالثها: التغذي ويشاركها فيه النبات والبهيمة، فإن قالوا: فالنفس الواحدة كيف تكون مصدراً للأفعال المختلفة؟. قلنا: لِمَ لا يجوز ذلك لا سيّما عند حصول الآلات المختلفة، فهذا هو البيان الملخص في وحدة النفس وهو أقوى (ممّا)[1] كتب جالينوس فيه المجلدات.

فأما المقام الثاني في بيان أن العضو الرئيس على الإطلاق هو القلب فنقول أنا قد بينا فيما تقدم أن المني إذا وقع في الرحم صار كالكرة ويجمع الأجزاء النارية والهوائية ويصير مادة للأرواح، ويجمع الأجزاء المائية والأرضية ويحيط بتلك الأرواح ليكون صواناً لها ومانعاً لها من التحلل والتفني وذلك الموضع المتوسط الذي اجتمعت فيه تلك الأجزاء اللطيفة هو الموضع الذي إذا نمت خلقته كان قلباً، فبهذا الطريق عرفنا أن أول عضو يكون هوالقلب فإذا كانت النفس واحدة كان تعلقها الأول بالقلب وبواسطة القلب يسري أثره إلى سائر الأعضاء فثبت أن العضو الرئيس على الإطلاق هو القلب هذا هو الكلام المعول عليه في إثبات هذا المطلوب، **وهاهنا وجوه إقناعية ونحن نذكرها**:

الحجة الأولى: أن العقلاء يجدون الفهم والإدراك والعلم في ناحية القلب فعلمنا أن القلب محل العلم.

قال جالينوس: نسلم أن القلب محل الغضب فأما أنه محل العلم فممنوع وجوابه أن الغضب دفع المنافي، ودفع المنافي له شعور بكونه منافياً فوجب أن يكون القلب محل العلم والشعور.

الحجة الثانية: أن النفس هي الحساسة المتحركة بالإرادة فإذا تعلقت النفس بالقلب فلا بدّ وأن يكون تفيد الحس والحركة الإرادية فيكون القلب منبعاً للحس والحركة الإرادية.

الحجة الثالثة: أن الحس والحركة الإرادية إنما يحصلان بالحرارة، أما البرودة فعائقة عنهما والقلب منبع للحرارة والدماغ للبرودة فجعل القلب مبدءًا للحس والحركة

---

(1) (مما) زيادة من (ب).

الإرادية أولى من جعل الدماغ مبدءًا لهما.

الحجة الرابعة: كل أحد إذا قال «**أنا**» فإنه يشير بقوله أنا إلى صدره وناحية قلبه، وأيضاً إذا قال الرجل العاقل أنا أفعل كذا، وأنا أقول كذا يضع يده على صدره، وهذا يدل على أن كل أحد يعلم بالضرورة أن المشار إليه بقوله أنا موجود في القلب لا في الدماغ.

الحجة الخامسة: أظهر آثار النفس الناطقة النطق فوجب أن يكون معدن النفس الناطقة هو الموضع الذي منه ينبعث النطق لكن النطق والكلام إنما ينبعث من القلب لا من الدماغ و[كذا] الصوت لأن الصوت إنما يتولد من إخراج النفس وإدخال النفس وإخراجه فعل القلب وذلك لأن من إدخال النفس ترويح حرارة القلب والمقصود من إخراجه دفع الفضلة المحترقة وإذا كان إدخال النفس وإخراجه مقصوداً للقلب بالذات فكان إسناد هذا الفعل إلى القلب أولى من إسناده إلى الدماغ الذي لا حاجة به ألبتة إلى النفس، فثبت أن إخراج النفس فعل القلب، والصوت إنما يحدث من إخراج النفس فثبت أن فاعل الصوت هو القلب، **قال جالينوس: الصوت لا ينبعث من القلب بل من الدماغ ويدل عليه وجوه:**

الأول: أن الآلة الأولى للصوت هي الحنجرة بدليل أنك إذا خرقت قصبة الرئة أسفل من الحنجرة لم تسمع لذلك الحيوان بعد هذه الحالة صوتاً فثبت أنّ آلة الصوت هي الحنجرة والحنجرة مؤلفة من ثلاثة غضاريف والغضاريف يتحرك بعضلات كبيرة وقيل العضلات إنما يتحرك بالأعصاب والأعصاب نابتة من الدماغ فثبت أن فاعل الصوت هو الدماغ.

الثاني: أنا نرى عضل الدماغ يتمدد عند التصويت بالصوت العنيف وأما القلب فإنّه لا يناله التعب عند التصويت.

الثالث: أن القلب إذا كشف عنه ثم قبض عليه لم يبطل من الحيوان صوته وإن انكشف من الدماغ ثم ضغط بطل في الحال صوت ذلك الحيوان. فثبت أن مبدأ الصوت هو الدماغ لا القلب، الجواب أنا بيّنا بالحجة القوية أن مبدأ الصوت هو القلب أقصى ما في الباب إن الدماغ يعين عليه إلا أن هذا لا يقدح في قولنا.

الحجة السادسة: أن القلب موضوع في موضع يقرب أن يكون وسطاً من البدن والعضو الرئيس يليق به ذلك حتى يكون ما ينبعث من القوى يصل إلى جميع أطراف البدن على القسمة العادلة والدماغ موضوع في أعلى البدن وذلك ينافي في هذا المقصود.

الحجة السابعة: أن الناس يصفون القلب بالذكاء فيقولون قلب ذكي وقلب بليد، قال جالينوس: الناس إذا وصفوا إنساناً بأنه له قلباً قوياً فمرادهم منه الشجاعة وإذا قالوا فلان لا قلب له فالمراد منه الجبن، والجواب أن هذا يدل على أن القلب موضع الغضب وهو لا ينافي في أن يكون القلب أيضاً موضع الفهم والعلم. **واحتج جالينوس على أن معدن الإدراك هو الدماغ [بوجوه]**[1]:

الحجة الأولى: هي أن الدماغ منبت العصب والعصب آلة الإدراك وما كان منبتاً لآلة الإدراك فوجب أن يكون معدناً لقوة الإدراك فهذه مقدمات ثلاثة:

المقدمة الأولى: وهو أن الدماغ منبت العصب فالدليل عليه أن الأعصاب الكبيرة إنما يوجد في الدماغ وأما القلب فلا يوجد فيه إلا عصبة صغيرة وإذا كان كذلك وجب أن يكون الدماغ منبتاً للأعصاب.

أما المقدمة الثانية: وهي أن الأعصاب آلات الحس والحركة، والدليل عليه أنك إذا كشفت عن عصبة وشددتها وجدت ما كان أسفل من موضع الشدّ فإنه يبطل عنه قوة الحس والحركة وهذا يدل على (أنه)[2] آلة الحس والحركة والغضب.

أما المقدمة الثالثة: وهي أنه لما كان الدماغ منبتاً للحس والحركة وجب أن يكون معدناً لهما فالدليل عليه أنه إذا كان قوة الحس والحركة إنما يحصلان من الدماغ إلى جميع أطراف البدن بواسطة هذه الأعصاب النابتة من الدماغ ثبت أن المعدن والمنبع لهذه القوة هو الدماغ.

واعلم أن أصحاب أرسطاطاليس أجابوا عن هذه الحجة من وجهين:

الأول: قالوا لا نسلم أن الدماغ منبت العصب أما دليل جالينوس على ذلك هو أن الأعصاب عند الدماغ كثيرة وليس في القلب إلا عصبة صغيرة فقد أجابوا عنه من وجهين:

---

(1) في المخطوط (وجوه).
(2) على أنه في المخطوط (على أن).

الأول: أن هذه المقدمة الواحدة غير منتجة للمقصود بل لا بد من ضم مقدمة أخرى إليها وهي أن القوة والكثرة إنما تكونان عند المبدأ والضعف والقلة عند غير المبدأ إلا أن هذه المقدمة غير برهانية بل هي منقوضة من وجوه:

الأول: إن العصبة المحرّفة تكون دقيقة عند المنبت فإذا دخل الموضع الذي تكون الحدقة فتغلظ تلك العصبة وتتسع وهذا نقض على هذه المقدمة.

الثاني: إن الحبّة التي منها يتولد ساق الشجرة تكون أصغر من ساق الشجرة فلم لا يجوز أن تكون العصبة الصغيرة التي في القلب تكون كالحبّة التي منها اتسعت الأعصاب الكثيرة في الدماغ.

الثالث: لو صح دليل جالينوس لوجب أن يقال أن سيد العروق والضوارب هي [بلنجة][1] الشبيهة بالشبكة التي في الدماغ لا القلب لأن في تلك العروق من العروق الضوارب عدداً لا يحصى وهو في غاية الشبهة بعروق الشجرة.

الرابع: من الجواب سلمنا أن الكثرة والقوة لا تحصلان إلا عند المبدأ لكنه لا نزاع أن القلب منبت الشرايين ثم إن أجرام الشرايين من جنس أجرام الأعصاب فيمكن أن لا تنبت الأعصاب منها، إنما قلنا أن العروق متساوية في هذه الصفات والأحوال، فعلمنا أن العروق والأعصاب من جنس الأعصاب وذلك لأن أجرام العروق تنفش وتنقسم إلى الشظايا الليفية لا حسّ لها وهي أبيض لديه عديمة الدم صلبة غير حساسة في نفسها لأنك إذا سددت العصبة برباط سداً قوياً صار مما هو أسفل من موضع السّد عديم الحس، وذلك يدل على أن العصب غير حساس في نصيبه وإنما يجري إليه الحس من موضع آخر فثبت أن العروق والأعصاب متشاركة في هذه الصفات والأحوال فعلمنا أن العروق والأعصاب من جوهر واحد، وإذا ثبت هذا فنقول: لم لا يجوز أن يقال أن هذه العروق والضوارب لما تقسمت وتشعبت ودقت وصغرت ونفذت في الدماغ التفّت بعضها ببعض وانضمت أجزاؤهما واتصلت فصارت على شكل الأعصاب. وتحقيق القول فيه أن هذه الشرايين حين ما انفصلت عن القلب كان يحتاج إليها لتكون حاملة للدم والروح إلى جوهر الدماغ فلما صغرت ونفذت في جوهر الدماغ وحصل هذا المطلوب حصل الاستغناء عنها فلا جرم صرفت إلى غرض

(1) (بلنجة) كذا في المخطوط.

آخر وهو أن أزيل عنه وصف التجويف وانضمت تلك الشظايا بعضها إلى بعض وصارت على أشكال الأعصاب فبهذا الطريق صارت العروق أعصاباً، ولما كان منبت العروق هو القلب لا جرم كان منبت الأعصاب أيضاً هو القلب. **بهذا الطريق أجاب جالينوس عن هذا الكلام من وجهين:**

الأول: قال الدليل على أن الأعصاب ليست من جنس العروق وجوه:

الأول: أن الشرايين ناقصة والأعصاب ليست بناقصة.

الثاني: أن الشرايين مجوفة والأعصاب ليست مجوفة إلا القليل.

الثالث: أن الشرايين محتوية على الدم بدليل أنها إذا نفثت حكمت ذلك القدر على صاحبه من انفجار الدم أمراً صعباً والعصب كله لا دم له.

الرابع: أن الشرايين مؤلفة من طبعين أحدهما تنحل إلى أجزاء ذاهبة في العرض على الاستدارة، والأخرى تنحل إلى أجزاء تذهب على الاستقامة في الطول، وأما العصبة فهي تنحل إلى ليف أبيض عديم الدم ذاهب على الاستقامة في الطول.

الخامس: إنك إذا سددت العصبة حصل عدم الحسّ والحركة الإرادية ولا يبطل منه حركة النبض، فإن سددت الشريان بطل النبض ولم تبطل الحس والحركة.

السادس: إن العصب (يتوقف عن)[1] فعله كثيراً والشريان فعله دائم فثبت بهذه الوجوه أن الشرايين ليست من جنس العصبات.

والوجه الثاني: من الجواب عن هذا الكلام، قال: إن أصل الشريان المتولد من القلب ينقسم إلى قسمين: قسم يصعد إلى جانب الرأس وقسم ينزل إلى أسفل البدن، والقسم النازل إلى السفل لا شك أنه ينقسم ويتفرق إلى العروق الدقاق ثم إنها بعد دقتها لم تصر أعصاباً فوجب أن يكون الحال كذلك في الشرايين الداخلة في الدماغ.

أجاب أصحاب أرسطاطاليس فقالوا: أما الجواب الأول فهو ضعيف لأن الصفات المذكورة للشرايين إنما تكون باقية قبل نفوذها في جوهر الدماغ أما بعد

---

(1) (يتوقف عن فعله) زيادة يقتضيها السياق.

نفوذها في جوهر الدماغ لم قلتم أن هذه الصفات تبقى؟ والذي يدل عليه أن الروح الدماغي لا شك أنه كان متولداً في القلب ثم إنه تصاعد من القلب وبقي في النسيجة المتولدة تحت الدماغ مرة ثم إنه ينفذ في الدماغ فتحدث له حال كونه في الدماغ أحوال في صفات ما كانت حاصلة في القلب. فلم لا يجوز أن يكون الحال في الشرايين كذلك وهو أن الصفات المذكورة كانت حاصلة لها قبل هذه في جرم الدماغ وتقسمها وتصغرها في الغاية أثر فيهما جرم الدماغ وقلبها على طباعها، فصارت في الصورة والخلقة شيئاً آخر فهذا الاحتمال لا يبطل بما ذكره جالينوس.

وأمّا جوابه الثاني فهو أيضاً ضعيف لأن الروح القلبي كما صعد إلى الرأس في الشرايين الصغيرة [نزل] إلى أسفل البدن في الشرايين الصغيرة، ثم إن الجزء الصاعد إلى الرأس تغيّر عن حالته بسبب اختلاطه بجرم الدماغ والجزء النازل، فهذا تمام الكلام على حجة جالينوس على أن الدماغ منبت العصب.

واحتج أرسطاطاليس على أن منبت العصب هو القلب فقال: الحركة الإرادية لا بد وأن يكون بآلة صلبة قوية والدماغ ليس لجرمه شيء من الصلابة والقوة، وأما القلب ففيه أنواع من الصلابة منها: أن لحمه قوي وحركته، ولا بد وأن يكون أقوى جرماً وإذا كان كذلك كان جعل القلب منبتاً للأعصاب التي هي الآلات للحركات القوية أولى من جعل الدماغ منبتاً لها.

أجاب جالينوس عنه من وجهين:

الأول: بنى كلامه على المقدمة القياسية، والحس دلّ على أن المنبت هو الدماغ والقياس المعارض للحس لا تلتفت إليه.

والثاني: أن المتولي لتحريك الأعضاء ليس هو العصب فقط بل العضلات مركبة من الأعصاب والرباطات والأغشية واللحوم، وهي مستندة إلى الأعصاب والأعصاب يفيدها الحس والقوة على الحركة وأما ما يختلط بها من الرباطات والأغشية فيفيدها القوة والشدة والأمن من الانقطاع وعلى هذا التقدير لا يمنع كون الدماغ منبتاً للأعصاب.

أجاب أصحاب أرسطاطاليس عن الأول بأن الحس والحركة لم لا [تدلان][1] على كثرة الأعصاب وقوتها عند الدماغ، وقد بينا أن هذا القدر لا يدل على كون الدماغ منبتاً للأعصاب، وأما الثاني فضعيف أيضاً لأن جالينوس استدل بغلظة العصب وكثرته على تولده منه وأرسطاطاليس عارض هذا فقال: إن كان هذا الوجه يدل على قولكم كون الدماغ لينا والعصب قوياً يمنع من تولده منه بل يكون العصب قوياً صلباً مع كون القلب قوياً صلباً يدل على كون العصب نابتاً من القلب فسقط كلام جالينوس بالكلية، والله أعلم.

النوع الثاني: من الجواب عن شبهة جالينوس:

سلمنا أن الدماغ منبت العصب الذي هو آلة الحس والحركة، لكن لم قلتم أنه يلزم من هذا كون الدماغ معدناً لقوة الحس والحركة بيانه أنه لا يبعد أن تكون قوة الحس من القلب إلا أن الدماغ معدن القوة يرسل إلى القلب آلة نابتة منه لتستفيد بتلك الآلة قوة الحس والحركة من القلب فإذا كان هذا الاحتمال قائماً سقط كلام جالينوس، والله أعلم.

الحجة الثانية لجالينوس: على أن معدن القوة المدركة هو القلب: وهذه الحجة أحسن دلائله أنه لو كان قوة الحس والحركة ينفذ من القلب إلى الدماغ لكنا إذا شددنا على العصبة بخيط شداً قوياً وجب أن يبقى الحس والحركة في الجانب الذي يلي القلب وأن يبطلا من الجانب الذي يلي الرأس، لكن الأمر بالضد فعلمنا أن قوة الحس والحركة يجري من الدماغ إلى القلب ولا يجري من القلب إلى الدماغ وهذه الحجة لا يحتاج فيها إلى المقدمات الكثيرة المذكورة في الحجة الأولى.

والجواب لم لا يجوز أن يقال الروح والقلب يكونان في غاية الحرارة فإذا كان بينه وبين الدماغ منفذ مفتوح وصل تبريد الدماغ إليه فاعتدل واستعدّ بقبول قوة الحس والحركة فأما إذا انسد المنفذ انقطع عنه تبريد الدماغ فلا جرم لم يبق مستعداً لقبول الحس والحركة، فتبطل هذه القوة من الجانب الذي يلي القلب وإنما لم يبطل من الجانب الذي يلي الرأس لأن الشرايين في الدماغ كثيرة جداً وكلها مؤدية إليه قوة

(1) تدلان: في المخطوط [تدلا].

الحس والحركة من جسم لطيف نافذ في الأعضاء هو الروح، وإذا كان كذلك فالدماغ لكونه مبدءًا لهذا الروح أولى من القلب وذلك لأنا نجد في الدماغ مواضع خالية. وأمّا القلب فليس كذلك فإن التجويف الأيمن منه مملوء دماً أما [شبهه] في التجويف الأيسر فإنه يعتقد فيه أنه مملوء من الروح. قال جالينوس: وليس الأمر كذلك لأن القلب إذا كشف عنه وأبرز من غير أن ينفث ويخرق أغشيته لم يمت الحيوان بسبب ذلك حتى إنه يمكنك أن تلبث مدة طويلة تلمسه بيدك وتنظر إليه بعينيك وهو مكشوف فتعرف كيف ينبض وتعلم أن نبضه عند ذلك كما لم يزل ينبض قبل أن تكشف عنه ولكن بشرط أن يقع هذا التشريح في موضع لا يكون هواه بارداً لئلا يبرد القلب فإنه لو برد القلب صار النبض حينئذٍ ضعيفاً بطيئاً متقارباً إذا عرفت هذا فنقول: إذا ثقبنا التجويف الأيسر في هذه سال في الحال دم ولو كان التجويف مملوءاً روحاً لوجب أن لا يسيل منه ألبتة دم ولو كان التجويف هذا في بعضه روح وفي بعضه دم لوجب أن يخرج الروح أولاً ثم يسيل الدم بعده، وكان يجب أن لا يسيل الدم في الحال على هذا التقدير فلما سال الدم في الحال علمنا أن التجويف الأيسر مملوء من الدم وأيضاً الحيوان الذي مات تجد في التجويف الأيسر من تجويفي قلبه علق الدم، وأما الدماغ فإن جرمه مزرد فلا يمتنع أن يحصل في تلك الغضون أجزاء الروح.

والجواب: هذه الحجة في غاية الضعف وذلك لأن هذا الكلام إن صحّ فهو يقتضي أن لا يكون في القلب روح أصلاً، وجالينوس لا ينازع في كون القلب معدناً للأرواح الحيوانية ويسلم أن الروح الحيواني يصعد من القلب إلى الدماغ ويصير هناك روحاً نفسانياً.

الحجة الثالثة لجالينوس: أن العقل أشرف القوى فيكون مكانه أشرف وأشرف الأمكنة أعلاها، فوجب أن يكون مكان العقل هو الدماغ وهو بمنزلة الملك العظيم الذي يسكن القصر العالي وأيضاً الحواس محيطة بالرأس كأنها خدم الدماغ واقفة حوله على مراتبها. وأيضاً محل الرأس من البدن محل السماء من العالم وكما أن السماء منزل الروحانيات فكذا الدماغ وجب أن يكون مسكناً للعقل.

والجواب: إنّ ما ذكرناه من البراهين لا تعارضه هذه الإقناعات فهذا آخر الكلام المنقح في هذه المسألة وكنت قد طالعت كتاب أداي بقراط وأفلاطون وهو كتاب نفيس والمقصود منه هذه المسألة فتعبت في انتخابه وضممت إليه أشياء كثيرة من

المعقولات ثم خفت من أن يضيع ذلك فكتبت في هذا المكان لئلا يضيع، وبالله التوفيق.

المسألة الثانية: في شرح أحوال القلب والذي يدل على شرف القلب وجوه:

الأول: أن المقصود من خلق الإنسان اشتغاله بمعرفة الله تعالى وخدمته وذلك لأنه تعالى قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ فبيَّن أن المقصود من الخلق هو العبادة، ثم قال في آية أخرى: المقصود من العبادة هو المعرفة إذ قال تعالى لموسى عليه السلام: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ وقال في آية أخرى المقصود من العبادة الإخلاص قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ فظهر أن لب اللب ومقصود المقصود إنما هو معرفة الله تعالى، ثم إنك قد عرفت أن محل هذه المعرفة والإخلاص هو القلب فحينئذٍ ظهر أن المقصود من خلق العالم هو القلب.

الحجة الثانية: أنه ثبت أن أول ما خلق الله تعالى جوهرة ثم نظر إليها بعين الهيبة فصارت ماءً ثم سلط الحرارة عليها فارتفع منها زبد وعلاه دخان فخلق الأرض من الزبد والسمٰوات من الدخان، فنقول: أنه تعالى خلق تلك الجوهرة شيئاً واحداً وسله من العدم إلى الوجود فكل واحد من المخلوقات فهو سلالة المعدومات ثم سلّ من هذا المخلوق الأرض لأنه قال تعالى: ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ وهذا هو السلالة الثانية، ثم سلّ من الأرض قبضة آدم كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ وهذا هو السلالة الثالثة. ثم جعل القلب سريراً لمعرفته فظهرت تلك الحكمة المطلوبة في رابع السلالات ليعلم أنه الشيء المعظم من جميع المخلوقات، وعند هذا ظهر أن جسم الإنسان منقسم إلى قسمين: إلى الهيكل الظاهر وإلى المقنعة الباطنة وهي القلب الذي هو سرير معرفة الله تعالى، فالقلب تبع للهيكل في الصورة، والهيكل الظاهر تبع للقلب في المعنى ولما جعل الهيكل الظاهر تبعاً للمضغة الباطنة علم أنك ما خلقت لأجل هذا الظاهر بل لأجل أن يطلب من هذا الظاهر باطناً، ومن هذا الشاهد غائباً ومن هذا المحسوس معقولاً فظهر بما قلنا أن المقصود الأصلي هو القلب وحصنه هو كل البدن وحصن البدن هو كل الأرض وحصن الأرض هو كل السمٰوات وحصن السمٰوات هو عالم الممكنات والكل مسخر في قبضة قدرته ونفاذ إلٰهيته. والشيء يكون اسماً للشيء الذي نسبته إلى غير هذه المضغة.

إذا عرفت هذا فنقول: القلب له في القرآن اسمان: أحدهما القلب والثاني الفؤاد، قال تعالى: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ وقال: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ وقال: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ وقال: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۝٦ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾.

ثم نقول: أنه يحتمل أن يكون الفؤاد اسماً لجميع هذه المضغة والقلب يكون اسماً لجزء مميز محسوس منه يسلك فيه إلى كل هذه المضغة كنسبة العين إلى الهيكل الظاهر كنسبة النقطة الناظرة إلى العين وتلك النقطة هي المسماة بسويداء القلب، فهذه السويداء بالنسبة إلى العين الباطنة كسواد العين بالنسبة إلى العين الظاهرة والسبب في أن الأبصار الظاهرة يحصل بالسواد والبصيرة الباطنة يحصل بالسويداء وجهان:

الأول: أن الإبصار يجري مجرى النور والسواد من جنس الظلمة فالسواد والإبصار متضادان وإظهار أحد الضدين من الآخر دل على القدرة والحكمة.

الثاني: لأن يكون الانتهاء على وفق الابتداء أو كما أن في الابتداء أظهر نور الوجود من ظلمات العدم بإيجاد الحق ﷻ فكذلك في الانتهاء ظهر نور البصر والبصيرة من ظلمات سواد العين وسويداء القلب ليكون المبدأ والغاية آيتين بقرائن الأحوال وشواهد المقال على تحقيق قوله تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ وعند هذا ظهر ترتيب عجيب، أما الظاهر فالعين ثم النقطة الناظرة ثم النور الباصر الموجود في النقطة الظاهرة. وأما الباطن فالفؤاد وهو اسم لتمام هذه المضغة ثم القلب ثم النقطة الناظرة وهو سويداء القلب ثم نور البصيرة. **إذا عرفت هذا فنقول:** أن الإبصار في عالم الظاهر يتوقف على شرائط وعلل هي نفسها معتبرة في إدارك البصيرة.

الشرط الأول للإبصار: أن لا يكون المبصر في غاية الخفاء أما الذي في غاية الجلاء فكالشمس فإن العين تتحير فيها فلا تقدر على إبصارها على التمام والكمال، وإما الذي في غاية الخفاء فكالذرة فكذا للعقل مدركات هي في غاية الجلالة والعظمة ومدركات هي في غاية الخفاء والصغر، وأما الأشياء التي هي في غاية الجلال والإشراق فهي جلال الله وكبرياؤه ومنه عظمة الأرواح العالية المقدسة فنور سويداء القلب يحترق في هذه الحضرة فلا تصل إليها وإليه الإشارة بقول من قال: سبحان من احتجب عن العقل لشدة ظهوره واختفى عنها بكمال نوره.

وأما الذي في غاية الخفاء فكتفاصيل الأحوال وقوله: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فإن النطفة من حين ما تقع في الرحم إلى أن ينفصل الجنين لها في كل لمحة حالة وفي كل لحظة صفة إلا أن التفاوت بين كل لحظتين مما لا يصل إليه عقول البشر.

وأما جريان المحدثات فهو أنه تعالى لما ذكر من الحيوانات الأنعام قال: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ﴾ ثم قال بعده: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ ثم قال: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ والمعنى: أنه لا يمكنكم أن تحيطوا علماً بتفاصيل أحوال جميع الحيوانات لكثرتها واختلاف أحوالها بالجملة، فالعقول قاصرة عن معرفة الأوائل والأواخر ونظيره أن العقول متحيرة في مبدأ الخلق والإيجاد وفي منتهى الإعدام وإلا فتأمل العقول لا سبيل لها إلى معرفة الأزل والأبد، فإن كلّ ما سيحضره في ذهنه يكون متوسطاً بين الأزل والأبد ولو أنه بقي إلى قيام الساعة يتقدم إلى ما قبل ويتأخر إلى ما بعد لم ير نفسه إلا في المتوسط بين الأزل والأبد منزهة عن لواحق الأنظار في غلائق الأفكار، وتمام الكلام سيأتي في باب الصفات في تفسير العدم والبقاء وشرح كونه أولاً وآخراً إن شاء الله.

الشرط الثاني: أن المبصر إذا كان حاضراً بحيث لم يحرك الإنسان حدقته من جانب إلى جانب تحريكات كثيرة فإنه لا يرى المبصر، فكذا الفؤاد ما لم يحرك عينه من معقول إلى معقول لا يتمكن من إبصار المطلوب وتلك التحريكات هي المسماة بالفكر والروية والنظر وكما أن نظر العين عبارة عن تقليب الحدقة من جهة إلى جهة طلباً لرؤية المرئي فكذا نظر القلب عبارة عن تقليب حدقة القلب من جانب إلى جانب طلباً لإدراك المعقول.

الشرط الثالث: إن القوة الباصرة لا يمكنها إدراك المبصرات إلا عند صيرورة الهواء مضيئاً بسبب طلوع الأشياء النيرة وكذا العقل لا يقدر على الإبصار إلا عند طلوع الأشياء النيرة، ثم نيّرات العالم الجسماني أربعة: الشمس والقمر والكواكب والنار، وأعظمها الشمس ثم القمر ثم الكوكب ثم النار، فكذلك نيرات العالم الروحاني أربعة:

أولها: نور جلال الله كما قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ وهي بمنزلة الشمس وكما لا تستطيع أبصار الخفافيش مطالعة قرص الشمس فكذلك لا تستطيع الأرواح البشرية مطالعة نور الجلال وهذه المرتبة منزلة الشمس.

والمرتبة الثانية: أنوار الأرواح العلوية الروحانية والكروبية كما قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ وقال: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ وأكابر الأنبياء والصديقين هم الذين يطيقون مطالعة هذه الأنوار، قال تعالى في واقعة موسى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ وقال في واقعة الخليل: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا﴾ وهذه المرتبة منزلة القمر، وكما أن القمر تارة يكون بدراً يضيء العالم إضاءة كاملة وتارة يكون هلالاً دقيقاً يظهر قليلاً قليلاً ثم يختفي فكذا الأرواح العلوية قد تكون عظيمة الإضاءة والإنارة كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ وقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وتارة يكون كالهلال الضعيف وهو قوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾.

والمرتبة الثالثة: أنوار الأرواح السفلية وهم الصديقون الملازمون لغيبة جلال الله المعتكفون في حضائر قدس الله تعالى استنارت أرواحهم فأناروا أرواح غيرهم، وهذه المرتبة بمنزلة الكواكب فكما أن الكواكب قد تكون في العظم الأول درّية متلألئة كما قال تعالى: ﴿كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ وقد تكون ضعيفة جداً كالسها وأمثاله فكذا الأرواح السفلية منها ما يكون قوية ومراتبها أربعة:

أولها: الذين يكونون في العُظم الأول وهو روح الكليم والخليل والحبيب فإن أرواح الخلق يهتدى بأنوار هذه الأرواح السفلية لأنها أرواح قدسية قريبة الدرجة من الأرواح العلوية ولهذا قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ وكما أن الفائدة في الكواكب هي قوله تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ فكذا دعوة الأنبياء عليهم السلام أعلام يهتدى بها في ظلمات بر السمٰوات وبحر الصغريات والشبهات قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

وثانيها: الذين يكونون في العظم الثاني وهي أرواح أولي العزم كما قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾.

وثالثها: أرواح المرسلين وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر وهؤلاء هم الذين يكون في العظم الثالث من الكواكب.

ورابعها: أرواح جملة الأنبياء وهم كما يقال ألف وأربعة وعشرون ألفاً. وهؤلاء هم الذين يكون في مرتبة العظم الرابع من الكواكب، ثم بعد هذا مراتب المؤمنين وهي ثلاث: السابقون والمقتصدون والظالمون كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ

ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فالسابقون هم الأولياء كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ والمقتصدون هم العلماء قال تعالى: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ والظالمون هم العوام ولكل واحد من هذه الأرواح أثر ونور اتصلت كالمرايا المتحاذية وتنعكس أنوار بعضها إلى البعض فيصير كل واحد منهما مكملة للآخر من وجه ومستكملة به من وجه ولهذا السبب كان أحد مقامات الصديقين الحب في الله.

المرتبة الرابعة: من نيّرات العالم الروحاني العقل ومرتبته مرتبة النار في عالم الجسميات فاعلم أن نور العقل له عيوب كثيرة كما أن نور النار له عيوب كثيرة.

فالأول: أن نور النار ممزوج بدخان كثيرة يسوّد الثوب ويجفف الدماغ وكذا نور الدماغ ممزوج بدخان الشبهات وذلك الدخان تارة يسوّد ثوب العبودية تلطخه التشبيه والتعطيل وأخرى يجفف الدماغ البشرية فيلقى صاحبه في وهم الحلول والاتحاد.

والثاني: أن نور السراج فيه إشراق وفيه إحراق وكذا نور العقل فيه إشراق وفيه إحراق أمّا إشراقه فهو التفكر في الخلق وأما إحراقه فهو التفكر في جلال الله تعالى فلهذا السبب قال ﷺ: «**تفكروا في الخلق ولا تتفكروا في الخالق**».

الثالث: إن نور السراج ينطفئ بأدنى ريح وكذا نور سراج التعقل ينطفئ بأدنى شبهة فلهذا السبب قال تعالى لمحمد ﷺ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ وقال الخليل: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ وقال يوسف الصديق: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وقال سليمان: ﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وقال الكليم: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ وقال عيسى عليه السلام: ﴿رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ وتلك المائدة مائدة الهداية والمعرفة.

الرابع: إن السراج إنما يظهر نوره إذا وضع في بيت صغير، فأما إذا وضع في صحراء واسعة فإنه يقلّ ضوءه، وكذا سراج العقل إنما يظهر نوره إذا وضع في بيت البدن كما قال: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ فإن هذا البيت صغير مختصر ألا ترى أن سراج العقل لما وضع في ميدان الأرواح انطفأ ولم يظهر له لمعان وشروق كما قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

فإذا كان حاله في ميدان الأرواح لا يظهر نوره فاعرف كيف يكون حاله في صحراء جلال الأنوار الصمدية وفضاء كمال الأسرار الإلٰهية تقدست عن أن يكون لها بداية ونهاية أو مقطع وغاية.

والخامس: ظهور نور السراج مشروط بأن يكون بينه وبين قرص الشمس حائل أما لو وضع في مقابلة قرص الشمس انطفأ، فكذا العقل إنما يضيء فيما وراء حجاب الغيب وعالم أنوار الصمدية فأما إذا أزيل الحجاب وتجلت الأنوار انطفأ نور العقل، ولهذا قال لموسى عليه السلام: ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ فقوله: اخلع نعليك إشارة إلى تلاشي قوة العقل واضمحلالها وقوله: إنك بالوادي المقدس طوى إشارة إلى تجلي لمعان أنوار العظمة والكبرياء.

السادس: نور السراج وإن طال بقاؤه ولكنه بالآخر ينطفئ وإن استمر، لكنه إذا تطلع الشمس فتبطل ضوؤه لا محالة فكذا نور سراج العقل إما أن ينطفئ لطريان الغفلات والشهوات أو أن يبقى إلى آخر الأمر لكنه إذا انقضى ليل الحياة الدنيوية فتجلى نهار عالم الآخرة وانكشفت السرائر وتجلت الضمائر لم يبق لسراج العقل نور ولا قوة ألبتة فهذا هو سراج نيرات عالم الروحانيات.

الشرط الرابع: كما أن انتفاع البصر بنيرات عالم الجسميات يتوقف على أمور فكذلك انتفاع البصيرة بنيرات عالم الروحانيات يتوقف على مثل تلك الأمور.

ولا بدّ أن إبصار الأشياء ورؤيتها تختلف بالكمال والنقصان فتارة يرى الإنسان شيئاً رؤية تامة وتارة يراه رؤية ناقصة وسبب هذا التفاوت إما أن يكون عائداً إلى ذات القوة الباصرة أو إلى أمور خارجة عنها، فكذا إدراكات البصيرة قد يختلف بالكمال والنقصان وذلك التفاوت قد يكون بسبب عائد إلى ذات البصيرة وقد يكون بسبب أمور خارجة عنها، أما العائد إلى ذات البصيرة فهو على وجهين:

الأول: اختلاف جواهر الأرواح قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وهذا يدل على أنّ أنوار هذه السبعة من معشر البشر وجنس الأنس مخصوص بمزيد القوة والجلال والرفعة فتارة تظهر آثار تلك القوة بالنبوة وتارة بالخلافة، قال تعالى في صفة عيسى عليه السلام: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ وقال في صفة محمد ﷺ: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ ثم يرقى من تعليم الملَك إلى تعليم الملِك

obeikandi.com

فقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ ثم انتقل من خطاب الغيبة إلى خطاب الحضور: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ وقال تعالى في حق جميع الأنبياء عليهم السلام على العموم: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ وقال ﷺ: **«الأرواح جنود مجندة»**[1] وقال ﷺ: **«الأئمة من قريش»**[2] وهو إشارة إلى اختصاص هذه الشيعة بمزيد قوة نفسانية روحانية فلما لم تظهر أثر تلك القوة بالنبوة بعد محمد ﷺ فلا بدّ من ظهور أثرها بقوة الخلافة والرئاسة وكل ذلك يدل على اختلاف الأرواح في ماهيتها فمنها ما يكون في غاية الجلالة والقوة ومنها ما يكون في غاية الضعف وهذا الاستعداد الذاتي لا سبيل إلى تبديله ألبتة.

الثاني: اختلاف جواهر الأرواح بسبب الصفات العرضية التي تقبل العلاج ومثاله في عالم الجسمانيات أنه قد يكون بصرٌ أضعف من بصر لا لأجل الخلقة الأصلية بل بسبب (مرض) قد عرض له فأورث ضعفه أو بسبب أنه استعمل كحلاً قوياً فأفاده ذلك الكحل في تلك الساعة زيادة قوة، فكذا الأرواح ربما تعرض لها عارض فيحصل فيه نوع من الكلال بسبب المعارض وإليه الإشارة. بقوله ﷺ: **«وإنه ليغان على قلبي»**. وهذا النوع من التفاوت قد يطرأ وقد يزول، وأما التفاوت الحاصل بسبب الأمور الخارجية فهو أنواع:

السبب الأول: الاشتغال بغير الله ومثاله في عالم المحسوسات إن من شغل حدقته بالنظر إلى شيء كان نظره إليه مانعاً له من إبصار غيره ثم كلما كان التحديق إلى الأول أشد وأكمل كان الحرمان عن إبصار الثاني أشد وأكمل، فكذا عالم الروحانيات على هذا القياس كلما كان اشتغال القلب بغير الله أشد وأكمل كان حرمانه عن الاطلاع على أنوار جلال الله أشد وأكمل ولهذا المعنى حكم تعالى بوقوع المنافاة بين الأمرين فقال: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ وقال في آية أخرى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ وقال: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ وقال ﷺ: **«حب الدنيا رأس كل خطيئة»** ثم إذا اتفقنا علمنا أنا كالمعذورين في حب الدنيا وكيف لا نحبها ونحن ما خلقنا إلا منها وإنما ارتضعنا من طعامها وإنما تربينا على ظهرها وإنما ألفنا وشاهدنا أحوالها ولو اتفق لبعض الخلق على سبيل القدرة

---

(1) رواه البخاري (3336) من حديث عائشة ومسلم (2638) من حديث أبي هريرة.

(2) رواه أحمد (3/ 129 و183) وأبو داود الطيالسي (596).

اطلاع على شيء من الروحانيات فذلك إنما يكون بغير استحكام الألف بالدنيا فمع هذه الأسباب القوية كيف ينفك قلب الإنسان من محبة الدنيا إلى أنه ﷺ قال: «**جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها**»[1] فانظر إلى الدنيا كم انتفعنا بطعامها وشرابها وأنهارها وأسحارها ولذاتها وطيباتها وإذا كان كذلك فلا محالة نكون مجبولين على حبها، فإذا عرفت هذا فنقول: كل من أحب شيئاً نظر إليه بكل عينيه ومن نظر إلى شيء بكلّ عينيه لم ير غيره، وأيضاً إذا كنت محباً لشيء عميت عن دونه معايبه وصرت مشتغلاً برؤية محاسنه وفضائله وأيضاً إذا استحكمت تلك المحبة امتلأ القلب منها والطرف إذا امتلأ من شيء لم يتسع لغيره فهذه قلوب لا يدخل فيها محبة الله تعالى وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ وقال تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ وذلك لأنه كانت قلوبهم مملوءة من حب الدنيا فما كانوا ينتفعون بما يرون ويسمعون ويتكلمون ثم إن هذه الحالة كلما كان دوامها أكثر كان استحكامها أشد وهو مرض القلب كما قال تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ والمرض ما لم يكن مستحكماً فإنه يرجى علاجه فإذا استحكم وصار بحيث لا يقبل العلاج قرب من الموت وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ وبقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وعند هذا يظهر أن الكل منه وأن الخير بيده والشر بتقديره وقضائه وها هنا سؤالان:

السؤال الأول: إذا استحكم مرض الجسم بحيث لا يرجى علاجه سقط الخطاب وإذا استحكم مرض القلب فلم لا يسقط الخطاب؟

الجواب: عدم سقوط الخطاب في هذه الحالة إنما كان حتى يعلم الإنسان قبل انتهائه إلى هذه الحالة أنه لو لم يشتغل بالعلاج قبل الانتهاء إلى هذه الحالة فإنه سيفضي إلى هذه الحالة، وعند انتهائه إلى هذه الحالة لا يمكنه العلاج عنه ولا يسقط عنه الخطاب أيضاً فلا جرم لأجل الخوف من هذه الحالة يشتغل بالتوبة وبالعلاج قبل الانتهاء إلى هذه الحالة، ثم إن هذه المرتبة لما لم يكن ممدودة كان هذا الخوف

(1) موضوع رواه أبو موسى المديني في جزء من إدراكه الحلال من أصحاب ابن فندة (150 ـ 151) وابن الأعرابي في المعجم (2/ 21 ـ 22) وابن عدي في الكامل (2/ 701) وأبو الشيخ في الأمثال (160) وأبو نعيم في الحلية (4/ 121) والخطيب في تاريخ بغداد (7/ 346 ـ 347) وابن الجوزي في العلل (2/ 29) والقضاعي في مدن الشهاب (600) والآفة من إسماعيل الخياط وهو من حديث عبد الله بن مسعود.

حاصلاً عند الإقدام على كل ما كان ذنباً وكانت التوبة حاصلة عند جميع الذنوب.

السؤال الثاني: إنكم ذكرتم أنا مجبولون على حب الدنيا وذكرتم أن حب الدنيا يورث الإعراض عن الآخرة ثم إنا مع ذلك أمرنا ببغض الدنيا وبحبّ الآخرة فكيف يجتمع هذا مع قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ **والجواب** ـ والله وأعلم ـ أنه يظهر منه أن العبد لا قدرة له على الوفاء بهذه الطاعة إلا بفضل المولى وكرمه وإعانته. بأن يجذبه من التوغل في حب الدنيا إلى حب المولى فلهذا السبب أمره الله تعالى أن يقول كل يوم مرات: إيّاك نعبد وإياك نستعين، وجاء في الأخبار المتواترة فضل عظيم في قول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

السؤال الثالث: أليس أن الدنيا أم حاضنة فما السبب في أن أوجب الله تعالى بغضها؟!. **الجواب**: أن حبها مانع عن حب الله تعالى وهذا لأنه فرض بغض الأبوين الكافرين وعصيانهما عند دعوتهما الولد إلى الشرك، فقال تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَاۖ﴾.

السؤال الرابع: ما علامة رجحان حب المولى على حب الدنيا؟. **الجواب**: ترجيح المحبة على المحبة إنما يظهر بأحد أمرين:

أحدهما: قدر الحزن عند الفوات والثاني قدر السرور عند الوجدان.. واعلم أنه ما لم يترجح حب الآخرة على حب الدنيا فلا إيمان، وإذا حصل الرجحان فلا يطيب الإيمان إلا عند زوال المعارض من جميع الوجوه وعلامة ذلك أن لا تخطر الدنيا بباله إلا عند الحاجة إليها كأنها شربة ماء قذرة استنجى بها.

السبب الثاني: لحصول التفاوت في هذه الأنوار الروحانية طيب الغذاء وخبثه قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ والسبب فيه أن الغذاء يصير جزءاً للبدن وللقلب ولا شك أن الشيء الذي يصير جزءاً للشيء يختلف حال ذلك الشيء بسبب اختلاف حال هذا الذي يصير جزءاً له، فالبيت إن طيّنته بالطين الكدر جاء كدراً وإن طيّنته بالجص الأبيض جاء صافياً نورانياً، وإذا اختلف حال البدن باختلاف أحوال الأغذية لا جرم يختلف أحوال تلك الأنوار بسبب اختلاف حال البدن ألا ترى أن الماء الصافي يكون لونه لون الظرف والقارورة فثبت أن طيب الغذاء وخبثه سبب لاختلاف أحوال الأنوار الروحانية.

السبب الثالث: الأمكنة والأزمنة، أما الأمكنة فقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ وقال: ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِي بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾. والأزمنة قوله تعالى: ﴿فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ وهذا يدل على أنها إذا كانت أيام رحمة كانت متصفة بالسعود أي يسعد فيها كل من يقدم فيها على عمل من الأعمال، وفي كلام أهل التصوف: الوقت سيف قاطع ولأرباب القلوب في هذه الكلمة كلمات، والذي يميل إليه قلبي أنه تعالى عين كل وقت لحادث فصار ذلك الوقت مربوطاً بذلك الحادث ترابط المشيئة الأزلية الذي لا يمكن دفعه وإبطاله، فإذا جاء ذلك الوقت جاء معه ذلك الحادث فكما أن السيف قاطع فالوقت بما يمضيه الحق ويجريه غالب وإذا كان الوقت الذي فيه يفتح الله رحمته متأخراً فلا تنفع الجد والجهد في الزمان المتقدم... وسمعت بعض المشايخ قال: بعث الشيخ أبو سعيد بن أبي الخير رحمة الله عليه واحداً إلى النهر ليجيئه بماء يتوضأ به وكان ينتظر في الرجوع، فقال الشيخ: ذلك الماء الذي يمكننا أن نتوضأ به بعدُ ما خرج من النهر.

السبب الرابع: وهو أقوى الأسباب العلوية والهداية الإلٰهية ولا يتم جميع الأسباب إلا بهذا المعنى قال الله تعالى: ﴿يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ وقال: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ فهذه الأحوال إشارة إلى مبدأ هذه الدرجة وأما وسطها فقوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ونهايتها قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ وأيضاً الإشارة إلى أوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ والإشارة إلى وسطه: ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ﴾ والإشارة إلى آخره: ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا﴾ ثم إذا وصل القلب إلى هذه الدرجة يكون في عالم القلوب كالشمس في عالم الأفلاك فعند هذا يبقى مسخراً في أنوار عالم الجلال كما قال: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ ثم صارت هذه الروح ينبوعاً لفيض الأنوار على أسرار الأرواح. وبعد هذا درجة أصحاب اليمين كما قال: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ وبعد هذا درجات لا يصل إليها الخيال ولا يعبّر عنها المقال ومن أرادها فليكن من الواصلين إلى العين لا من السامعين إلى الأثر.

الشرط الخامس للإبصار: اعلم أن الجنين حين ما يكون في رحم الأم في أول ما يخلق الله عينيه تكون الجفنان ملتصقتين ثم بعد زمان يفصل الله برفع أحد الجفنين

عن الآخر، إلّا أن الجفنين تكونان منطبقتين فإذا انفصل عن بطن الأم يفتح العينين في بعض الأوقات إلا أنه في أكثر الأوقات يغمضها ويكون نائماً وعند فتح العينين يكون جاهلاً بأمه والأم مع ذلك تراعي مصالحه لعلمها بأنه ما حان أوان قدرته على التمييز بين المحسن والمسيىء، ثم لا يزال الطفل ينظر إليها إلى أن يميز بين الأم وغيرها ثم إذا واظب على النظر ألف النظر والإبصار حتى يصير بحيث لا يمكنه أن لا ينظر إلى شيء. إذا عرفت هذه المراتب في العين الظاهرة عرفت مثلها في العين الباطنة ففي أول الأمر يكون عين القلب منطبقاً ثم ينفتح ولكنه لا يقدر على أن يميز بين الخير والشر ثم لا يزال ينظر بعين عقله إلى أن يصير بحيث يدرك الفرق بين المحسن والمسيىء فيعرف أن المحسن هو الحق وأن ما سواه فهو سبب الضرر، ثم إذا واظب على هذا النظر صار بحيث لا يمكنه أن يصبر عن نظر العقل، وكما أن الأم تعذر الطفل في أول عمره عن التمييز بينها وبين غيرها، فكذا الحق هاهنا يُعذر الإنسان في أول عمره أن لا يعرف ربه وذلك سن ما قبل البلوغ، ثم إذا واظب على النظر في أفعال الله وآثار حكمته في مخلوقاته حصل له عشق ومحبة مع هذا النظر فلا يرى شيئاً بعقله إلا وتنتقل منه إلى مبدئه وغايته، أما المبدأ فهو قدرة الحق وأما الغاية فهي حكمة الحق فيصير بحيث لا يرى شيئاً إلا ويرى الله بعده وحينئذٍ يستنير السر كما يستنير القمر بمقابلة الشمس، والقلب في هذا المقام قد استلذّ بالنظر وألفه فلا جرم [أن] يقلب الفؤاد والقلب حدقه من منظور إلى منظور وقد كان للقلب قبل ذلك عين واحدة وأما الآن فقد صارت كل ذرة من ذرات المبدعات والكائنات عيناً للقلب وذلك لأن العالم كله يصير مرآة للقلب والمرآة للعين بمنزلة بصر زائد فإنه يرى بها ما لا يراه بدونها فعند ذلك يصير كل ذرة من ذرات الممكنات عيناً له، والعين ينبوع النور فيصير كل العالم ينبوع النور في حقه، وإذا اتصلت أنوار العالم صار كله نوراً قال تعالى في هؤلاء: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ وفي الحديث: «**إنّ أهل الجنة يرون أهل العليّين كما يرون الكوكب الدري في السماء وإنّ أبا بكر وعمر منهم**»[1] وبالله التوفيق.

---

(1) رواه البخاري (3256) ومسلم (2831) من حديث ابن سعيد.